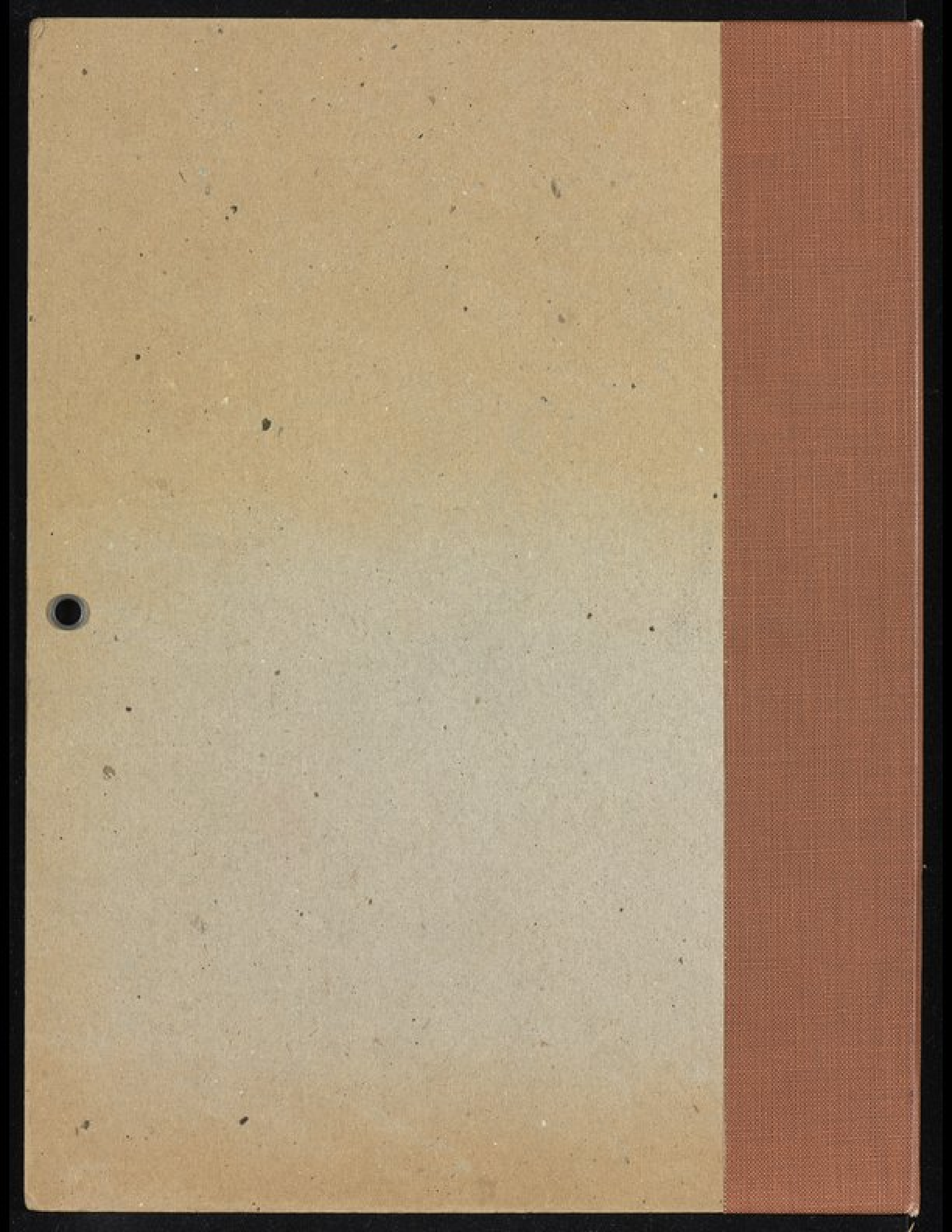
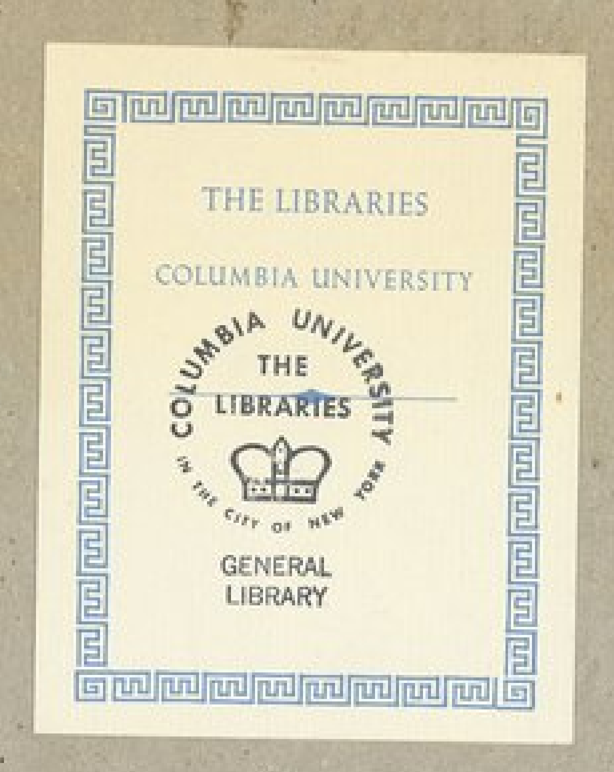




الرسالة العذراء

لابراهيم بن المدبر

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث

بقلم

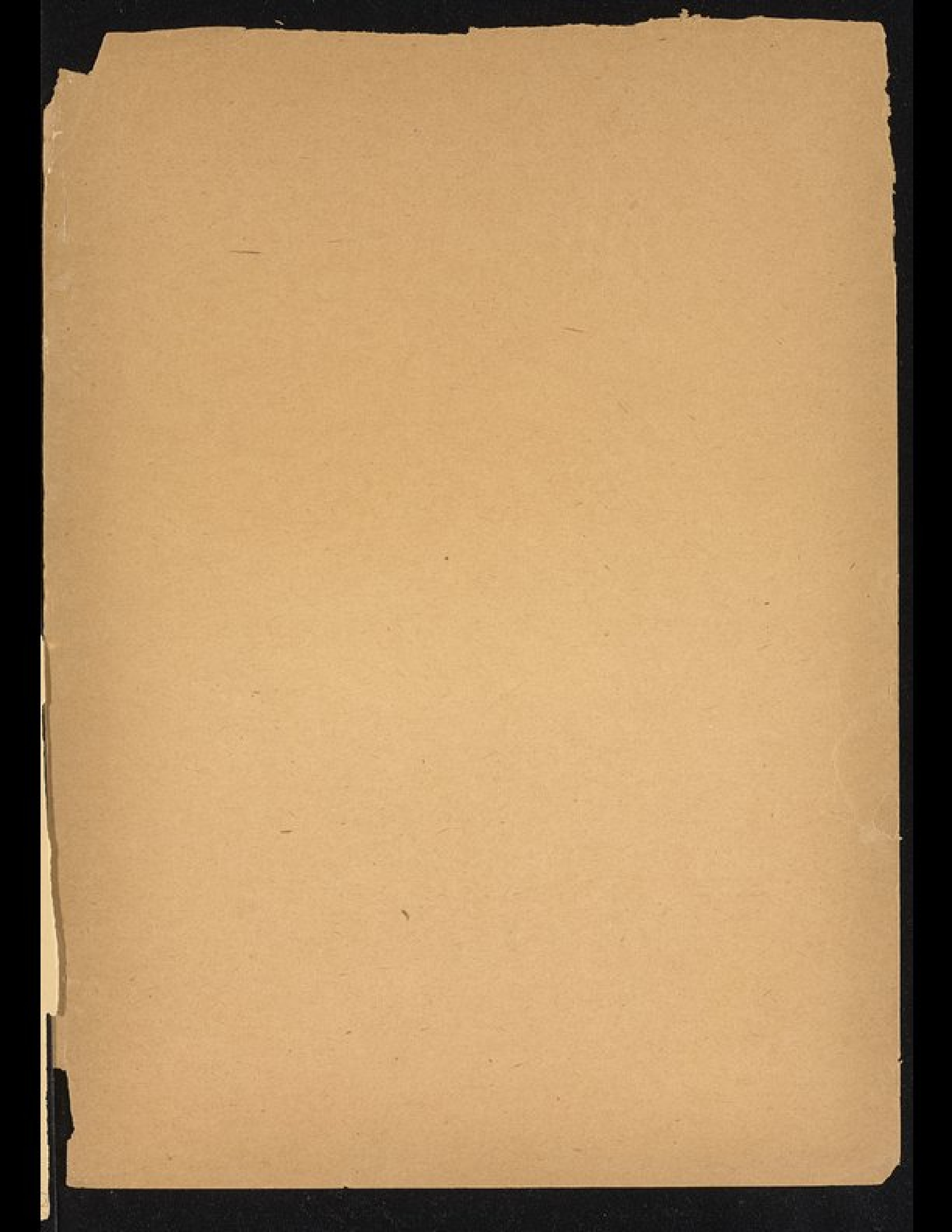
الدكتور زكى مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م



الى الاستاذ حضرى
من المؤلف
زكى مبارك

الرسالة العذراء

لابراهيم بن المدبر

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكى مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

كلمة وجيزة

تلك الرسالة العذراء

أقدمها للقراء بعد أن شغلت نفسي بها عاما كاملا : فصححتها وضبطتها، وقابلت أصولها على ما كتب من نوعها فى فن الإنشاء.

وكان فى النية أن أكتب لها مقدمة بالعربية، ولكنى اكتفيت بذلك البحث المفصل الذى كتبته بالفرنسية عن فن الانشاء فى القرن الثالث، وشرحت به آراء ابن المدبر، وابن درستويه، والصولى، وابن عبد ربه، والجاحظ .

وهذه الدراسات قدمت فى الأصل لمدرسة اللغات الشرقية فى باريس لنيل "دبلوم الدراسات العليا فى الآداب" وقد عرضت لها بشىء من التعديل بعد أن انتفعت بملاحظات الأساتذة فى يوم الامتحان .

وفى البحث الفرنسى بعض الخروج على الحدود التى رسمها الأستاذ وليم مرسيه . وانى لأعتذر اليه : فقد رأيتنى مضطرا الى مخالفته، وإن كنت أضمر له فى نفسى أسمى آيات الإعزاز،

فقد يفنى كل شىء وتبقى ذكريات الساعات الطيبة التى قضيتها معه فى تحقيق أصول "الرسالة العذراء" .

وهذا البحث فى جملته تمهيد لكتابى الذى وضعته بالفرنسية عن "النثر الفنى فى القرن الرابع" وقدّمته الى جامعة باريس .

✣

وأنتهز هذه الفرصة فأقدّم أسمى التحيات الى المستشرقين الفرنسيين الأساتذه : مرسيه، و ديموميين، و ماسينيون، وكولان، الذين انتفعت بعلمهم فى باريس .

وأتشرف بعد ذلك باهداء هذا البحث الى الدكتور سنوك هوجرونيه المستشرق الهولندى الذى وضع فى سنة ١٩٢٦ بحثا وافيا بالهولندية عن كتابى "الأخلاق عند الغزالى" فشرفنى كل التشريف ورفع قدرى بين المستشرقين .

زكى مبارك

هليوبوليس فى ٩ محرم سنة ١٣٥٠ (٢٧ مايو سنة ١٩٣١)

بسم الله الرحمن الرحيم

فتق الله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك، وأنطق بالحق لسانك، وشرّف به بيانك.[1] وصل الىّ كتابك العجيب الذى استفهمتنى فيه بجوامع كلمك جوامعَ أسباب البلاغة، وآستكشفتنى[2] عن غوامض آداب أدوات الكتابة، سألتنى أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وحدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكلة سرده، وحسن افتتاحه وختمه، وآنتهاء فصوله، وآعتدال وصوله، وسلامتهما من الزلل، وبعدهما من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقا اسم الكتابة، والبليغ مسلما له معانى البلاغة فى إشارته واستعارته[3]، وإلى أى أدواته هو أحوج، وبأى آلاته هو أعمل، اذا حصحص الحق[4]، ودُعى إلى السبق، وفهمته[5].

---

(١) الابتداء بالدعاء على هذا النحو كان مألوفا فى القرن الثالث، ويشبه هذا ابتداء الجاحظ حيث قال: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبب إليك التثبت، وزين فى عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما فى الباطل من الذلة، وما فى الجهل من القلة". مقدمة الحيوان طبع سنة ١٣٢٣ بالقاهرة. (٢) نلاحظ أن الكاتب عدّى الفعل: «استفهم» بنفسه، وعدّى: «استكشف» بالحرف، وقد نص الفيروزابادى على تعدية الفعل الثانى وسكت عن الأول. (٣) لعل الصواب «وعبارته» لأنها أنسب ولأن المؤلف لم يفرد الاستعارة بكلام خاص.

(٤) جملة: «اذا حصحص الحق» لا حاجة إليها ولكن دعا إليها السجع والمضى فى المزاوجة.

(٥) جملة: «وفهمته» وقعت بعيدة عن الكتاب، وإيجازها بعد ذلك الاطناب يشعر القارئ بشىء من الوحشة. وقد وقع هذا التعبير بعينه فى مقدمة رسالة الجاحظ عن أخلاق الكتّاب إذ قال: «قد قرأت كتابك، ومدحك أخلاق الكتّاب وشمائلهم، ووصفك فضائلهم وأيامهم، وفهمته» ص ٤٠ من «ثلاث رسائل للجاحظ» طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ. وكلمة الجاحظ «مدحك أخلاق الكتّاب» وردت هناك «مدحتك» والأصوب ما أثبتناه ليصح التوازن مع قوله بعد ذلك: «ووصفك فضائلهم».

وأنا راسم لك — أيدك الله — من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك، ويعبر عن جملة سؤالك، وإن طوّلت فى الكتاب وعرّضت،[١] وأطنبت فى الوصف وأسهبت، ومستقص على نفسى فى الجواب على قدر استقصائك فى السؤال، وإن أخلّ به التياث الحال، وسكون الحركة، وفتور النشاط، وآنتشار الروية، وتقسم الفكر، واشتراك القلب، والله المستعان[٢].

(١)

إعلم — أيدك الله — أن أدوات ديوان جميع المحاسن وآلات المكارم طائعة[٣] منقادة لهذه الصناعة التى خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة الى جحد أحكامها ولا دافعة لما يلزمها الإقرار به لها إضرارا منها إليها وعجزا عنها، فان تقاضتك نفسُك علمَها ونازعتك همتك الى طلبها فاتخذ البرهان دليلا شاهدا والحق إماما قائدا يقرّب مسافة ارتيادك ويسهل عليك سبل مطالبها، وآستوهب الله توفيقا تستنجح به مطالبك، وآستمنحه رشدا يقبل إليك بوجه مذاهبك. فاقصد فى ارتيادك، وتأمل الصواب فى قولك وفعلك. ولا تسكن الى جحود قصد السابق باللجاج، ولا تخرج الى إهمال حق المصيب بالمعاندة والانكار، ولا تستخفّ بالحكمة ولا تصغّرها حيث وجدتها، فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك، وتظعن شاردة عن مكانها من بالك، وتُعفى بعد العمارة من قلبك آثارها، وتنطمس بعد الوضوح أعلامها.

---

(١) عرضت: جعله عريضا وهو تعبير قليل الوقوع. وفى مثله قال موسى بن الطائى الأندلسى:

يا مبصرا عميت نواظر فهمه ٭ عن كنه عَرْضى فى البديع وطولى

ص ١٤٣ ج ١ ذخيرة

(٢) هذه العبارة تفهمنا أن المؤلف وضع هذه الرسالة فى وقت لم يكن أنسب الأوقات للتأليف. ولكن ينبغى أن نلاحظ أن مثل هذه الشكوى وقعت لكثير من المؤلفين حتى كادت تصير فيما بعد جزءا من المقدمات.

(٣) « طائعة » مؤنث طاع بمعنى طائع.

(٢)

وآعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكلف، وطول الاختلاف الى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء، فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصفّح من رسائل المتقدّمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه: فى تلقيح ذهنك، وآستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار، والسيَر والأسمار[1]، ما يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك.

(٣)

وآنظر فى كتب المقامات[2] والخطب، ومحاورات العرب، ومعانى العجم، وحدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وتوقيعاتهم، وسيرهم ومكايدهم فى حروبهم، بعد أن تتوسط فى علم النحو والتصريف[3] واللغة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات، فإنه أول ما يحتاج اليه الكاتب، وتمهرَ فى نزع آى القرآن فى مواضعها، وآجتلاب الأمثال فى أماكنها، وآختراع الألفاظ الجزلة، وقرض الشعر الجيد، وعلم العروض: فان تضمين المثل السائر، والبيت الغابر، مما يزين كتابتك، ما لم تخاطب خليفة أو ملكا جليل القدر، فان اجتلاب الشعر فى كتب الخلفاء والجلّة الرؤساء عيب واستهجان للكتب، إلا أن يكون

---

(١) فى الأصل « الأسماء » وهو تحريف. (٢) المقامات جمع مقامة وهى فى اللغة المجلس. وفى القرآن: « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » سورة مريم آية ٧٢ وفى شعر زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم * وأندية ينتابها القول والفعل

ثم تطورت بالاستعمال فصارت تدل على ما يقع فى الأندية من طريف المحاورات، وفى هذا المعنى استعملها مؤلف الرسالة العذراء، ثم خصصت فى كلام بديع الزمان ومن حاكاه فصارت اسما للقصة القصيرة المسجوعة. (٣) فى العقد: « التعريب » وهى اللفظة المستعملة فى مثل هذا المقام.

الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ، فان ذلك مما يزيد فى أبهته ، ويدل على براعته . وإن شدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محله[١] ، وتقبت من هذه الفنون ما تستعين به على إطالة قلمك ، وتقويم أود بيانك[٢] .

بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة[٣] ، حلو الشمائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدا من القَدامة ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكا بالتجربة ، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ، وبالملوك وسيرها وأيامها ، وبالدهور فى تقلبها وتداولها ، مع براعة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشاكلة الاستعارة ، وحسن الإشارة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، حتى ينصب[٤] صورا منطقية تعرب عن أنفسها ، وتدل على أعيانها ، لأن الحكماء[٥] قد شرطوا فى صفات الكتّاب طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم[٦] ، وكثافة اللحية ، وصدق الحسّ ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وملاحة الزىّ ؛ حتى قال بعض المهالبة لولده :

---

(١) بمناسبة تضمين الأبيات قال صاحب صبح الأعشى : « الاستشهاد أن يورد البيت من الشعر أو البيتين أو أكثر فى خلال الكلام المنثور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر ، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه كما يشترط فى الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية ، فان الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام فلا يحتاج الى التنبيه عليه ، وأكثر ما يكون ذلك فى المكاتبات الإخوانيات » ص ٢٧٤ ج ١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) لم يذكر الكاتب جواب الشرط .

(٣) فى الكلام التفات من المخاطب الى الغائب .

(٤) فى الأصل "تنصب" بالتاء المثناة من فوق .

(٥) الربط غير موجود بين هذا الكلام وما قبله ، لأن ما قبله خاص باجادة المعانى وهذا خاص بالصفات الحسية للكتّاب . وعبارة العقد : « من صفة الكاتب اعتدال القامة ... الخ » ويلاحظ أن هناك « اعتدال القامة » وهنا « طول القامة » .

(٦) جمع لهزمة وهى عظم ناتئ تحت الأذن .

تزيّوا بزيّ الكتّاب ، فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السُّوقة[1] . [ومن كمال آلة الكاتب أن يكون بهى الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الاشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستقره المركب ، ولا يكون مع ذلك قضفاض الجثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة ، فانهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة[2]] .

---

(١) كان الكتّاب يتجملون فى ملابسهم حتى صحت فيهم هذه العبارة . وكان لهم زى خاص ، قال الثعالبى : « وكان فى جملة الطارئين على الصاحب شيخ أنطاكى فى زى الكتّاب حسن البيان ظريف اللهجة » ص ٥٣ ج ٣ يتيمة . وكانوا معروفين بحلاوة الشمائل ، وأنشد صاحب صبح الأعشى (ص ١١٥ ج ١٤) :

وشمول كأنما اعتصروها ✻ من معانى شمائل الكتّاب

...وقال ابن بسام يصف عبد الرحمن بن حزم و يفضله على ابن عمه أبى محمد ابن حزم (كان أنبه من أبى محمد فى حضور شاهده وذكاء خاطره وحسن هيئته و براعة ظرفه وجودة أدبه) أنظر الذخيرة ج ١ ص ٦٣ مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد أشار ابن قتيبة الى أزياء الكتّاب فى عيون الأخبار ج ١ ص ٤٦ وعرض لهم الجاحظ فى رسالته ذم أخلاق الكتّاب فأبان أنهم كانوا يهتمون بتعريض الجبة وتطويل الذيل . انظر ص ٤٢ من ثلاث رسائل للجاحظ طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ ﻫ .

وقد أعطانا ياقوت بعض التفاصيل عن لباسهم فذكر أنهم كانوا يلبسون الطيلسان أو الدراعة . وانظر قوله (قال ابن عبد الرحيم : كان النبىّ فى بدء أمره يلبس الطيلسان ... ثم لبس من بعد الدراعة وسلك فى لبسه مذاهب الكتّاب القدماء ، وكان يلبس الخفين والمبطنة ، و يتعمم العمة النغرية ، وإن لبس لا بلة لم تكن إلا من يديه ، وكان لا يتعرض حلق شعره بر باطل السنة السالفة .) ص ٢٣٤ ج ١ — وعرض المقدسى أيضا لأزياء الكتّاب فى كتابه أحسن التقاسيم ص ٤٤٠ ج ١ — و يظهر من كلام الجاحظ فى البيان والتبيين أنه كان لكل طبقة من الكتّاب زى خاص . أنظر ص ٦٠ ج ٣ . والتفاصيل التى أعطاها صاحب العقد عن أصناف الكتّاب تحتم ذلك : فقد كان لكل صنف ثقافة خاصة به فمن المعقول أن يكون لكل طبقة زى خاص بها ليشاكل الوسط الذى تعيش فيه .

(٢) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٢

(٥)

وخاطب كلا على قدر أبهته وجلالتــه[١]، وعلوّه وآرتفاعه، وتفطنه وآنتباهه[٢].

وآجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام : فأربعة منها للطبقة العلوية، وأربعــة دونها[٣]، ولكل طبقة منها درجة، ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها، ويقلب معناها إلى غيرها : فالطبقة العليـا[٤] الخلافة التى أعلى الله شأنها[٥] عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيـا فى التعظيم والتوقير والمخاطبــة والترسل. والطبقة الثانية الوزراء والكتّاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرتُقون الفتوق بآرائهــم، ويتحملون بآدابهم. الثـالثة أمراء ثغورهم، وقواد جيوشهم، يخاطب كل آمرئ منهم على قدره وبمـا حمل من أعباء أمورهم، وجلائل أعمالهم. الطبقة الرابعــة القضاة، فانهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضــلاء، فمعهم أبهة السلطنة وهيبة الأمراء[٦].

---

(١) عبارة العقد الفريد : « اذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والخطباء والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته . الخ .

(٢) فى العقد : « وفطنته » .

(٣) عبارة العقد : « منها الطبقات العليه أربع، والطبقات الأخرى وهى دونها أربع »

(٤) عبارة العقد : « فالحد الأول الطبقات العليا وغايتها القصوى الخلافة » .

(٥) عبارة العقد : « التى أجل الله قدرها » .

(٦) بمناسبة المكتوب إليه قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب : «ونستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه فى كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام، فإنى رأيت الكتّاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيه فليس يفرقون بين من يكتب اليه : «فرأيك فى كذا» وبين من يكتب إليه : « فإن رأيت كذا » . ورأيك إنما يكتب بها للأكفاء والمساوين ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت .

ولا يفرقون بين من يكتب اليه : «وأنا فعلت ذلك» وبين من يكتب اليه : « ونحن فعلنا ذلك» . نحن لا يكتب بها عن نفسه إلا آمر أوناه لأنها من كلام الملوك والعظماء» . ص ١٥ طبع سنة ١٣٤٦ ه .

أما الطبقات الأربع الأخرى : فالملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم فى الكتب وأفضالهم تفضيلهم فيها . والثانيــة وزراؤهم ، وكتابهم ، وأتباعهم الذين بهم تقرع أبوابهم ، وبعنايتهـم تستماح أموالهم . والثـالثة هم العلماء الذين يجب توقيرهم فى الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله . الرابعة لاهل[١] القدر والجلالة والظرف ، والحلاوة والعلم والأدب[٢] ، فانهم يضطرونك بحدة أذهانهم ، وشدة تميزهم وانتقادهم ، [وأدبهم وتصفحهم[٣]] الى الاستقصاء على نفسك فى مكاتبتهم .

(٦)

واستغنينا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه الآلات ، واشتغالهم بمهماتهم عن هذه الأدوات . ولكل طبقة من هــذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليـك أن تراعيها فى مراسلتك إليهم فى كتبك[٤] ، وتزن كلامك فى مخاطبتهم بميزانه ، وتعطيه قسمه ، وتوفيه نصيبه ، فإنك متى أضعت[٥] ذلك[٦] لم آمن بك أن تعـدل بهم غير[٧] طريقهم ، [وتسلك بهم غير مسلكهم[٨]] وتجرى شعاع بلاغتك فى غير مجراه ، وتنظم جوهر كلامك فى غير سلكه . فلا تعتد بالمعنى[٩] الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته ، ومشابها لمن راسلته . فان إلباسك[١٠] المعنى ، وإن شرف وصلح ، لفظا مختلفا عن قدر المكتوب اليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى ، وإخلال

---

(١) فى العقد : « أهل القدر » . (٢) عبارة العقد : « والجلالة والحلاوة والطلاوة والظرف والأدب » . (٣) زيادة عن العقد . (٤) فى العقد : « ترعاها فى مراسلتك إياهم فى كتبك » . (٥) فى العقد : « متى أهملت ذلك » . (٦) فى العقد : « لم آمن عليك » . (٧) فى العقد : « عن » . (٨) زيادة عن العقد . (٩) فى الأصل : « فلا يفيد المعنى » وقد آثرنا عبارة العقد لأنها أدق . (١٠) فى الأصل : « وان إلباسك » وقد اخترنا رواية العقد ، لأنها أظهر فى ربط الكلام .

بقدره، وظلم لحقّ المكتوب اليه، ونقص مما يجب له؛ كما أن فى اتّباع[١] تعارفهم، وما انتشرت به عاداتهم، وجرت به سنتهم، قطعا لعذرهم[٢]، وخروجا من حقوقهم، وبلوغا الى غير[٣] غاية مرادهم، وإسقاطا لحجة أدبهم.

فمن[٤] الألفاظ المرغوب عنها، والصدور المستوحش منها فى كتب السادات والأمراء والملوك، على اتفاق المعانى، مثل: "أبقاك الله طويلا وعمرك مليا"، وإن كنا نعلم أنه لا فرقان بين قولهم: "أطال الله بقاءك"، وبين قولهم: "أبقاك الله طويلا"[٥]، ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزنا، وأنبه قدرا، فى مخاطبة الملوك؛ كما أنهم جعلوا "أكرمك الله وأبقاك" أحسن منزلة فى كتب الظرفاء والأدباء، من "جعلت فداك"، على اشتراك معناه، واحتماله أن يكون فداء من الخير كما يكون فداء له من الشر. ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبى وقاص: "فداك أبى وأمى"[٦]، لكرهت أن يكتب بها أحد. على أن كتّاب العسكر وعوامّهم قد أولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها فى جميع محاوراتهم، وجعلوها هِجّيراهم فى مخاطبة الشريف والوضيع، والصغير والكبير؛ ولذلك قال محمود الورّاق:

---

(١) فى الأصل «امتناع» وهو تحريف.

(٢) فى الأصل: «وضعا لقدرهم» والتصويب عن العقد.

(٣) كلمة «غير» لا لزوم لها هنا، وهى من زيادة الناسخ.

(٤) فى الأصل «ضمن» وهو تحريف.

(٥) قال الصولى: «قد كره قوم من أهل العلم «أطال الله بقاءك». وروى عن حماد بن زيد أنه قال: أحدثها الزنادقة. وقال الأصمعى: هى من دعاء الزنادقة. وقيل: أصل يبطل هذا ويطلق الكاتب بها إذ كان الناس كلهم الآن عليها» وذلك الأصل هو ما رواه أنها وقعت فى مخاطبة عمر لعلى بن أبى طالب: صدقت، أطال الله بقاءك! (أدب الكتاب — ص ١٧٢ و ١٧٣).

(٦) فى العقد: «ارم، فداك أبى وأمى!».

كل من حلّ سُرّ من را من النا * س وممن يصاحب الأملاكا[1]

لو رأى الكلب ماثلا فى طريق * قال للكلب يا جُعلت فداكا[2]

---

(١) فى العقد : « يداخل » . (٢) قد وقع ابن المدبر فى هذا إذ قال يخاطب أبا العيس :

كيف أصبحت يا جعلت فداكا * إننى أشتكى إليك جفاكا

(ص ١١٨ ج ١٩ أغانى) .

وقوله فى مخاطبة أبى عبد الله حمدون :

لبئس مستنصحا فى مثل ذلك يا * نفسى فداؤك من مستنصح غدر

وتأمل عبارة « يا نفسى فداؤك » . ووقعت هذه العبارة فى خطاب كتبته اليه عريب إذ قالت : « فلا تعوّد نفسك — جعلنى الله فداءها — هذا الجفاء ، والثقة منى بالاحتمال وسرعة الاجوع » ص ١٢١ ج ١٩ أغانى . وذكر القلقشندى نقلا عن النحاس فى جملة ما يكاتب به الفتيان : « جعلت أنا وطارق وتالدى فداك ، أو نفسى تفديك » ص ١٣٢ ج ٨

وقد وقع هذا الدعاء فى كتب ابن عبد كان — كاتب أحمد بن طولون فى مصر — إذ قال :

« جعلنى الله فداك ، فإن فى ذلك شرفا فى العاجل ، وذخر العقبى فى الآجل » . وقال :

« إن قلت فى كتبى إليك : جعلنى الله فداك ، فأكون قد بخست حظ إحسانك إلىّ ، وحق مفترضك علىّ ، لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازى طرفة من دهرك ، وإنما يفدى مثلك بالأنفس التى هى أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض » ص ١٦١ ج ٨

و يظهر من كتاب أدب الكتّاب الصولى أن هذا تعبير قديم ، فقد نقل أن الزبير دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو عليل فقال : ما الذى بك ، جعلنى الله فداك؟ فقال : « يا زبير ! أما تركت أعرابيتك بعد ! » . كأنه كره قوله : جعلنى الله فداك . ص١٧٣ . ونقل عن أحمد بن يحيى ثعلب أنه سمع ابن الاعرابى يقول : تقول العرب « وهبنى الله فداك » بمعنى جعلنى فداءك . ص ١٧٤

وكتب عبد الحميد : « جعلت فداك من السوء كله» . وتبعه أبو العيناء ص ١٥١ أدب الكتّاب .

و يظهر أن ابن المدبر كان قد ردّد هذه الفكرة فى أحاديثه قبل أن يودعها الرسالة العذراء ، فقد قال الصولى : وأجتنبوا أن يقولوا للوزير فى الدعاء « جعلنى الله فداءك » من أجل أن الشىء إنما يفدى بمثله أو بأجل منه . ثم قال بعد إيراد الشواهد على ذلك : « حدثنا بذلك ابراهيم بن المدبر ، وهذا رأى لم يكن القدماء يرونه ، بل كانوا يخاطبون الخلفاء بالتفدية فضلا عن الوزراء» . (ص ١٥٣ و ١٥٤) .

ونقل عن المبرد أنه قال : سأل المأمون أبا محمد يحيى بن المبارك عن شىء فقال له : « لا ، وجعلنى الله فداك ، يا أمير المؤمنين » ؛ فقال : لله درّك ، ما وضعت واو قط موضعا أحسن من موضعها فى لفظك . ووصله وحمله . قال : وهذا لفضل أدب المأمون ، على أن الفدية من أخلص الدعاء ، وألطف التوسل ، وأن غاية موجود الانسان وأنفس ذخائره نفسه جلت أو قلت (ص ١٥٤) .

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل "أبقاك الله وأمتع بك" إلا الى الحرمة والأهل والتابع والمنقطع اليك . وأما فى كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه ؛ ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات[١] :

أحُلْت عما عهدت من أدبك ۞ أم نلت ملكا فتهت فى كتبك

أم هل ترى أن فى التواضع للـ ۞ إخوان نقصا عليك فى حسبك[٢]

أتعبت كفيك فى مكاتبتى ۞ حسبك مما يزيد فى تعبك[٣]

إن جفاء كتّاب ذى أدب ۞ يُكتب فى صدره :"وأمتع بك"[٤]

فكتب إليه محمد بن عبد الملك :

أنكرت شيئا فلستُ فاعله ۞ فلن[٥] تراه يخطّ فى كتبك

فاْعفُ فدتك النفوس عن رجل ۞ يعيش حتى الممات فى أدبك[٦]

كيف أخون الإخاء يا أملى ۞ وكل شىء أنال من سببك[٧]

إن يك جهلا أتاك من قبلى ۞ فعد بفضل علىّ فى أدبك[٨]

---

(١) وردت هذه المكاتبات فى أدب الكتّاب مع اختلاف قليل (أنظر ص ١٦١ و ١٦٢) .

(٢) رواية العقد :

أم هل ترى أن فى ملاطفة الإخـ ۞ ـوان نقصا عليك فى أدبك

(٣) فى العقد : « حسبك ما لقيت » .

(٤) رواية العقد .

أكان حقا كتّاب ذى مقة ۞ يكون فى صدره : وأمتع بك

(٥) فى العقد : « ولن » وهو أدق .

(٦) رواية الصولى : « فى كنفك » وهى أنسب ولا يقع بها فى البيت إيطاء .

(٧) رواية الصولى : « كيف يحول الإخاء ... وكل خير » الخ .

(٨) رواية الصولى :

إن كان ذنبا جناه ذو ثقة ۞ فعد بفضل عليه من أدبك

ورواية ابن عبد ربه :

إن يك جهل أتاك من قبلى ۞ فعد بفضل علىّ من حسبك

(٧)

وأما صدور السلف فإنما كانت : من فلان بن فلان إلى فلان . كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العلاء بن الحَضْرَمىّ، والى أقيال اليمن ، والى كسرى وقيصر ، وكتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى آستخلص الكتّاب هذه المحدثات من بدائع الصدور ، وآستنبطوا لطيف الكلام ، ورتبوا لكلٍّ رتبة ، وجروْا على تلك السنة الماضية الى عصرنا هذا فى كتب الخلفاء والأمراء ، وثبتوا على ذلك المنهاج فى كتب الفتوحات والأمانات والسجلات .

(٨)

ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغى للكاتب ألّا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك بمخاطبة العوام فى قوله :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ∗ مَذِقُ الحديث يقول ما لا يفعل

فهذا معنى صحيح فى المدح ، ولكنهم أجلّوا أقدار الملوك أن يُمدحوا بما يمدح به العوام ، لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد ، وإن كان مدحا فهو واجب على كلٍّ ، والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة ، وإنما يحسن مدحهم بالنوافل ، لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك لا تزنى بحليلة جارك ، وإنك لا تخون ما آستُودِعت ، وإنك تصدق فى وعدك ، وتفى بعهدك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولكنه لم يصل بثنائه الى مقصده ، وقال ما لا يستحسن مثله فى الملوك .

ونحن نعلم أن كل أمير تولى[1] من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين ، غير أنهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلا للخلفاء خاصة ، ونعلم أن الكَيْس هو العقل اذا عنوا به

---

(١) فى العقد : « يتول » .

ضدّ الحمق، ولكنك لو وصفت رجلا فقلت : إن فلانا لعاقل، كنت قد مدحتـه عند النـاس، ولو قلت إنه كيِّس كنت قد قصَّرت فى وصـفه ، وقصَّرت به عن قدره[1]، إلا عند أهل العلم باللغة، لأن العامّة[2] لا تلتفت الى معنى الكلمة إلا الى حيث جرت منها العادة فى آستعمالها فى الظاهر، مع الحداثة والغرّة[3] وخساسة القدر، وصغر السنّ ، فقد روينا عن على رضى الله عنه أنه تبجح بالكَيْس[4] حين بنى [سجن][5] الكوفة وقال :

أما ترانى كيسا مكيِّسا ✱ بنيت بعـد نافع[6] مخيسا[7]
حصنا حصينا وأميرا كيِّسا[8]

وقال آخر :

✱ ما يصنع الأحمق المرزوق بالكيس ✱

ونعـلم[9] أن الصلاة رحمة ، غير أنهم قد حرّموها إلا على الأنبيـاء ، كذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنـه ، وسمع سـعد بن أبى وقاص أخا له[10] يلبى ويقول : يا ذا المعارج؛ فقال : نحن نعلم أنه ذو المعارج، ولكن ليس كذلك كنا نلبى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنمـا كنا نقول : لبيك اللهم لبيك !

---

(١) رواية العقد : « وصغرت من قدره » . (٢) عبارة العقد : « إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغرة . الخ » . (٣) فى الأصل « الغزة » وهو تحريف . (٤) فى العقـد : « تسمى بالكيس » . وربمـا كان الأصوب « المكيس » وفى فتوح مصر لابن عبد الحكم ان أهل مصر كانوا يسمون عبد الله بن عبد الملك « مكيسا » ص ١٢٢ . (٥) زيادة ضرورية عن العقد . (٦) نافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البنـاء وكان من قصب فكان المحبوسون يهربون منه . (٧) المخيس : سجن بالكوفة بناه أمير المؤمنين على بعد سجن نافع . (٨) فى اللسان : « بابا كبيرا وأمينا كيسا » . (٩) عبارة العقد : « وكذلك نعـلم » . (١٠) فى العقد : « ابن أخ له » .

وكان أبو إبراهيم[١] المزنى قال فى بعض ما طالب به داود بن خلف[٢] الأصبهانى : وإن قال كذا فقد خرج من الملة والحمد لله ؛ فانتقد[٣] عليه ذلك داود وقال : تحمد الله على أن يخرج مسلم من الإسلام ، هـذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، ونحن نقول على المصيبة[٤] : إنا لله وإنا اليه راجعون .

(٩)

فامتثل هذه الرسوم والمذاهب ، وأجرِ على آدابهم ، فلكلٍّ رسوم امتثلوها . وتحفَّظْ فى صدور كتبك وفصولها ، وافتتاحها وخاتمتها ، وضَعْ كل معنى فى موضع يليق به ، وتخيَّر لكل لفظة معنى يشاكلها . وليكن ما تختم به فصولك فى موضع ذكر الشكوى بمثل : والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وفى موضع ذكر البلوى : نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صرف السوء ؛ وفى موضع ذكر المصيبة بمثل : إنا لله وإنا اليه راجعون ؛ وفى موضع ذكر النعم بمثل : والحمد لله خالصا والشكر لله واجبا ؛ فإنها مواضع ينبغى للكاتب تفقّدها[٥] ، فإنما يكون كاتبا[٦] اذا وضع كل معنى فى موضعه ، وعلّق كل لفظة على طبقها[٧] من المعنى ، فلا يجعل أوّل ما ينبغى له أن يكتب فى آخر كتابه ولا آخره فى أوّله[٨] ؛ فإنى سمعت جعفر بن محمد الكاتب[٩] يقول : لا ينبغى للكاتب أن يكون كاتبا[١٠] حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أوّل كتابه ولا يقدّم آخره .

---

(١) فى العقد «ابراهيم» فقط . (٢) فى الأصل : «داود بن على خلف» وهو تحريف ، والتصويب عن العقد . (٣) فى العقد : «فنقض عليه ذلك داود» . (٤) فى العقد : «وإنما يقال فى المصيبة» . (٥) فى العقد : «فان هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقدها ويحتفظ بها» . (٦) فى العقد «فان الكاتب إنما يصير كاتبا» . (٧) فى الأصل «طبقتها» وهو تحريف ، والصواب عن العقد . (٨) فى الأصل : «ولا أوله فى آخره» . (٩) هو جعفر بن محمد بن خالد بن ثوابة . أنظر معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ٣٧ (١٠) عبارة العقد : «لا يكون الكاتب كاتبا» وهى أدق .

(١٠)

وآعلم أنه لا يجوز فى الرسائل ما أتى فى آى القرآن[1] من الإيصال[2] والحـذف ، ومخاطبـة الخاص بالعام ، والعـام بالخاص ، لأن الله سبحانه وتعالى إنمـا خاطب بالقرآن أقواما فصحاء فهموا عنه — جل ثناؤه — أمره ونهيه ومراده ، والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغـة لا علم لهم بلسان العرب . وكذلك ينبغى للكاتب أن يتجنب اللفظ المشترك ، والمعنى الملتبس ؛ فإنه إن ذهب على مثل قوله تعـالى : ﴿وآسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿بل مكر الليل والنهـار﴾[4] ، احتاج أن يبين [أن معناه : اسأل أهل القرية وأهل العير ، و][5] بل مكركم بالليل والنهار ، ومثله فى القرآن كثير[6] .

---

(١) فى العقد : « استعمال ما أتت به آى القرآن » .

(٢) فى العقد : « الاقتصار » وفى نهاية الأرب « الاختصار » .

(٣) وردت هذه الآية فى الأصل محرفة . انظر سورة يوسف . ورقم الآية ٨٢

(٤) انظر المصحف ٣٤ : ٣٢

(٥) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٧

(٦) بمناسبة الحـذف جاء فى الأغانى أن عريب كتبت الى جماعة من أهل الأدب منهم ابراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد ويحيى بن عيسى : « بسم الله الرحمن الرحيم . أردت ولولا ولعل » ووجهت اليهم الرقعة ؛ فلما وصلت قرءوها وعيّوا بجوابها . فأخذها ابراهيم بن المدبر فكتب تحت أردت : ليت ، وتحت لولا : ماذا ، وتحت لعل : أرجو . ووجه بالرقعة اليها — ص ١٢١ ج ١٩ طبع الساسى .

وفى ياقوت عن رجل كان ينادم ابن المدبر قال : كنت عنـده ذات يوم فرجع غلام له أنفذه فى شىء لا أدرى ما هو فقال له : ما صنعت ؟ فقال : ذهبت ولم يكن فقام يجىء بجاء فلم يجئْ بجئت . وتفسيرها : ذهبت الى الغلام ولم يكن أبوه هناك فقام الغلام يجىء بجاء أبوه فلم يجئْ الغلام بجئت أنا) ص ٢٩٣ ج ١ معجم الأدباء .

ومفهوم أن هـذا الحذف لا يكون إلا لغرض التعمية أو التمليح . وغرض ابن المـدبر فى الرسالة أن يشير الى المكاتبات العابثة .

(١١)

ولا يجوز فى الرسائل ما يجوز فى الشعر لأن الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والإضمار فى موضع الإظهار[١] : فمن الحذف قول الحطيئة : "من صنع سلاّم"[٢] يريد سليمان بن داود، وكقول الآخر : "والشيخ عثمان أبو عفان"[٣]، وكقول الآخر :

وسائلةٍ بثعلبــة بن ســيْر ٭ وقد عَلِقتْ بثعلبة العلوقُ[٤]

أراد ابن سيار، وكقول النابغة :

---

(١) عبارة العقد ونهاية الأرب :

«وكذلك لا يجوز أيضا فى الرسائل والبلاغات المنثورة ما يجوز فى الاشعار الموزونة . لأن الشاعر مضطر، والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافى ، فلذلك أجازوا لهم صرف مالا ينصرف من الأسماء، وحذف مالا يحذف منها ، واغتفروا فيه سوء النظم ، وأجازوا فيه التقديم والتأخير ، والإضمار فى موضع الاظهار ، وذلك كله غير سائغ فى الرسائل ، ولا جائز فى البلاغات» ص ١٩ ، ٢٠ ج ٣ .

(٢) ورد البيت فى العقد كاملا :

فيها الرماح وفيها كل سابغة ٭ جدلاء مسرودة من صنع سلام

والشطر الأخير ، رد فى المزهر هكذا :

٭ جدلاء محكمة من صنع سلام ٭

(ص ٢٥١ ج ٢ طبع بولاق)

وورد فى الجواليق ص ٨٥ طبع أوربا :

٭ جلاء محكمــة من صــنع ســلام ٭

وظاهر ان (جلاء) محرفة عن (جدلاء) .

(٣) ينبغى أن نلاحظ أن أكثر أهــل مصر يقولون : «فلان أبوفلان» بمعنى «ابن فلان» ، ويمكن أن يكون هــذا بقية من بعض التعابير القديمة . وقد ورد البيت كاملا فى العقد ، وصدره :

من نسج داود أبى سلام .

(٤) العلوق بالفتح : المنية .

* ونسج سُلَيم كل قَضَّاء ذائل[1] *

يريد سليمان .

وكذلك ينبغى فى الرسائل ألا يصغر الاسم موضعَ التعظيم و إن كان ذلك جائزا على مثل قولهم : دُوَيهية وجُذَيل وعُذَيق[2] .

---

(١) قضاء : على وزن شداد الدرع المحكمة . وذائل : طويل الذيل . وفى الأصل « كل قضاء نازل » وهو تحريف . وصدر البيت : وكل صموت نثلة تعلية . أنظر المزهر ج ٢ ص ٢٥١ والعقد الثمين فى دواوين الستة الجاهليين ، طبع لندن ص ٢٣ — وفى العقد الفريد شواهد لحذف غير ما مر وهى :

* قواطنا مكة من ورق الحما *

يعنى الحمام .

وقول الآخر : * صفر الوشاحين صموت الخلخل * يريد : الخلخال .

وقول الآخر : * دار لسلمى إذه من هواك * يريد : إذ هى .

وقال الآخر :

ولست بآتيه ولا أستطيعه * ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد : ولكن

وزاد المزهر قول الآخر :

فان تنسنا الأيام والعصر تعلموا * بنى قارب انا غضاب لمعبد

أراد : عبد الله ، لتصريحه به فى بيت آخر من القصيدة

وقال آخر :

* هوى بين أطراف الأسنة هوبر *

يريد : ابن هوبر «انظر بقية الشواهد ص ٢٥١ ج ٢» .

(٢) فى الأصل «عزيق» بالزاى المعجمة وهو تحريف . وأضاف العقد : «جذيل : تصغير جذل ، وعذيق : تصغير عذق» وزاد الشواهد الآتية :

قال الشاعر وهو لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم * دويهية تصفر منها الأنامل

وقال الحباب بن المنذر يوم سقيفة بنى ساعدة : أنا عذيقها المرجب ، وجذيلها المحكك .

ومما لايجوز فى الرسائل : كلمت إياك وأعنى إياك [١] .

وإساءة النظم فى التأليف فى الشعر كثير .

وتكون الكلمة بشعة حتى اذا وضعت موضعها وقُرنت مع أخواتها حسن حالها وراقت ، كقول الحسن بن هانئ :

* ذو حُضُر أفلت من كد القبل *

والكدّ كلمة قلقة لا سيما فى الرقيق والغزل والتشبيب ، غير أنها لما وقعت فى موضعها حسنت ؛ كما أن اللفظة العذبة اذا لم توضع موضعها نفرت ، قال :

رأت عارضا جَوْنا فقامت غريرةً * بِمِسْحاتها قبل الظلام تبادره

فأوقع الجلفُ الجافى هذه اللفظة غير موقعها ، وظلمها إذ جعلها فى غير مكانها ، لأن المساحى لا تكون ولا تصلح للغرائر ؛ وأين كان عن قول الشاعر :

غرائر ما حدّثن يهدين أنسة * فما فوقه منهنّ غير غرائر [٢]

حديث لو آن العُصم [٣] تُدْعى به أتت * ودون يد الفحشاء حدُّ البواتر

فتخيّر من الألفاظ أرجحها وزنا ، وأجزلها معنى ، وأليقها فى مكانها [وأشكلها فى موضعها] [٤] .

---

(١) زاد فى العقد أن هذا جائز فى الشعر . قال الشاعر :

وأحسن وأجمل فى أسيرك أنه * ضعيف ولم يأسر كإياك آسر

وقال الراجز : * إياك حتى بلغت إياك *

(٢) كذا فى الأصل والمعنى غير ظاهر . وربما جاز أن تقرأ « لما فوقه منهن غير غرائر » ويكون المراد أن أولئك الحسان تغلب عليهن الغرة والسذاجة حين يكون الحديث لمحض الأنس ، فاذا أريد بالحديث مافوق ذلك من أمارات الريبة عدن غير غرائر واعتصمن بسوء الظن .

(٣) العصم جمع أعصم ، وهو من الظباء والوعول ما فى ذراعيه أو فى أحدهما بياض ، وسائره أسود أو أحمر ، والمؤنث عصماء . والعصم معروفة بشدة النفور . ولذلك صح للشاعر أن يصف حديث الملاح بالقدرة على جذب النوافر من الوعول والظباء . (٤) زيادة عن العقد .

(١٢)

وليكن فى صــدر كتابك دليل واضح على مرادك، وآفتتاح كلامك برهان شاهد على مقصدك[1] حيثما جريت فيــه من فنون العلم، ونزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات، فإن ذلك أجزل لمعناك، وأحسن لآتساق كلامك . ولا تطيلنّ صدر كلامك إطالة تخرجه من حدّه، ولا تقصر به عن حقه .

ولو صُوّر اللفظ وكان له حدّ لوقفتك عليه، غير أنهم فى الجملة كرهوا أن يزيدوا سطور كتب الملوك على سطرين ؛ وهذه إشارة لا تعبر إلا عن الجمــلة من المقصود إليه، لأن الأسطر غير محدودة .

(١٣)

وآعلم أن أوّل ما ينبغى لك أن تصلح آلتك التى لا بدّ لك منها، وأدواتك التى لاتتم صناعتك إلا بها : وهى دواتك[2]، فآبدأ بعمارتها وإصلاحها، وتخيّرْ لها ليقة[3] نقية من

---

(١) هذا يذكر بكلمة ابن المقفع « وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته » . انظر البيان والتبيين ص ٩١ ج ١ وزهر الآداب ص ٩٦ ج ١ طبع سنة ١٩٢٥ .

(٢) الدواة جمعها دوى مثل نواة ونوى . وهن دو بات مثل نو بات ، ودوى أيضا بضم الدال وتشديد الياء مثل قناة وقنى ، قال أبو ذؤيب .

عرفت الديار كرقم الدوى * يحبــره الكاتب الحميــرى

وقال زهير :

أمن آل سلمى عرفت الطلولا * كخط الدوى مائلات مثولا

(٣) الليقة ما يوضع فى الدواة من صــوف أو خرقة ، فان كانت من القطن خاصة فهى الكرسف . و يقال ألقت الدواة إذا أصلحتها وسوّدت مدادها فأنا أليقها إلاقة ، فهى ملاقة وأنا مليق ، وفى لغة أخرى لقتها فأنا أليقها ليقا . وقــد لاقت الدواة نفسها أى اسودت ، فهى لائقة . ومن هذا قيل : ما لاقت المرأة عند زوجها ، أى ما لصقت بقلبه . وفلان ما يليق شيئا : أى ما يثبت فى يده شىء . قال الشاعر :

تقــول اذا أهلكت مالا للذة * فكيهة هــل شىء بكفك لائق

ومنه قول الأصمعى : دخلت على الرشــيد فى بعض قدماتى فقلت : « ما ألاقتنى الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين » أى ما ألصقتنى بها ولا قبلتنى . انظر أدب الكتاب ص ٩٩ ، ١٠٠ وكتاب الكتاب ص ٩٤

الشعر والوذح[1] لئلا يخرج على حرف قلمك ما يفسد كتابك، و يشغلك بتنقيته، وخذ من المداد الفارسى خمســة دراهم، ومن الصمغ العربى درهما ، وعفصا مســحوقا نصف درهم، ورماد القرطاس المحرق درهمين، ثم تسحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض، ثم بندقها وٱجعلها فى الظل، فإذا ٱحتجت اليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرته وحشوت به دواتك ، وإذا نقعته فى ماء السِّلْق حتى يَنحلّ ويذوب ويختمر ثم أمددت من مائه دواتك كان أجود وأنق . ثم اختر بعــد ذلك من أنابيب[2] القلم الذى يصلح لكتابة القراطيس أقله عقــدا[3]، وأكثفه لحما ، وأصلبــه[4] قشرا، وأعدله استواء، وتجنب الأقلام الفارسية ما ٱستطعت فإنها ما تصلح إلا للكواغد والرقوق .

(١٤)

وٱجعل لقلمك براية حادّة، فإن تعــثُّر يد الكاتب وقت قطع القرطاس ناقص مروءته، ومخلٌّ بظرفه .

و إن قدرت ألا تقطــع القرطاس اذا فرغت من كتابك إلا بخرطوم قلمــك فافعل، فإن ذلك أكمل لمروءتك، وأبدع لظرفك وقطعك .

---

(١) الوذح بالذال المعجمة ما تعلق بأصواف الغنم ، وفى الأصــل « الودح » بالدال المهمــلة . وهو تحريف .

(٢) الأنابيب جمع أنبوب وهو من القصب والقنا . قال ٱمرؤ القيس :

وكشح لطيف كالجديل مخصر * وساق كأنبوب الســقىّ المذلل

ولا يسمى الأنبوب قلما حتى يقطع (انظر كتاب الكتاب ص ٩٢)

(٣) فى الأصل « عقدة » وهو تحريف ، والصواب عن العقد .

(٤) فى الأصل « أجليه » وما أثبتناه أنسب وهو يطابق ما فى العقد .

واستعمل لبرى القلم سكينا[١] طواويسيا، مذلّق الحدّ، وميض الطرف ، فيكون ذلك عونا لك على برى أقلامك ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس ؛ ولئن قيل: كأنه الرمح الرديني فقد قال الكاتب: كأنه القلم البحرى . وتفقّد الأنبوبة قبل بَرْيكها لئلا تجعلها منكوسة ، وآبرها من ناحية نبات القصبة ، وأرهف ما قدرت جانبَىْ قلمك ، ليرّد ما آنتشر من المداد، ولا تطل شـقّه فإن القلم لا يمجّ المداد من شقه إلا مقدار ما آحتملت شَبَاته ، فآرفع شبتيه ليجمعا لك حواشى تحضيره . وأما قطّ[٢] القلم فعلى قدر القلم الذى يتعاطاه الكاتب من الخط ، غير أن المسلسل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربع القط ، كما أن كتب الملوك والسجلات لا تحسن إلا بالقلم المحرف الكوفى ، وأما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه ، والمقصود إليه فى النوائب والمهمات .

---

(١) السكين يذكر وقد يؤنث ، فن تذكيره قول أبي ذؤيب :

يرى ناصحا فيما بدا فاذا خلا * فذلك سكين على الحلق حاذق

أى قاطع ، وفى تأنيثها بقول بعض بنى تغلب :

فأنحى المسنام غداة قر * بسكين موثقة النصاب

(أنظر أدب الكتاب ص ١١٥ ، ١١٦) .

(٢) قال الصولى فى أدب الكتاب : « يقال : قططت القلم أقطه قطا . والقط والقد متقاربان : لأن القط أكثر ما يستعمل فيما وقع السيف فى عرضه ، والقد لما وقع فى طوله . ومنه قولهم : كان أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب رضوان الله عليه اذا علا بسيفه شيئا قده ، واذا آعترضه قطه . وقد يحمل هذا على هذا . وقال عمرو بن معديكرب :

فكم قط سيفى من قونس * غداة اللقيا ومن مفـرق

ومط حاجبيه ومدّ بمعنى ، وإنما جاز ذلك فى قدّ وقط ومدّ ومط لأن مخرج الطاء والدال فى مكان واحد من أصول الثنايا وطرف اللسان ، كما يقال : طين لازب ولازم ، لأن مخرج الباء والميم من الشفة فى مكان واحد . أنظر ص ١٠٩ ، ١١٠ — قال ابن درستويه : « وتقول : قططت القلم قطا اذا قطعت من طرفه المبرى ليستوى » كتاب الكتاب ص ٩٣

ورأيت كثيرا من الكتّاب يختارون قلم النرجس لتجعده وتجانسه ومن[1] اللازورد أبسط منه وأقوم حروفا . وأما الموشع والمولع والمدبج والمنمنم والمسهم فعلى قدر رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه .

وأما حسن الخط فلا حدّ له . قال على بن زيز النصرانى الكاتب : أعلمك الخط فى كلمة واحدة : لا تكتبن حرفا حتى تستفرغ مجهودك فى كتابة الحرف المبدوء به ، وتجعل فى نفسك أنك لا تكتب غيره ، حتى لا تعجل عنه الى غيره .

(١٥)

وإياك والنقط والشكل فى كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المعضل الذى تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه ، فلأن يُشكِل علىّ الحرف أحبُّ الىّ من أن يعاب بالنقط والإعجام[2] .

وقال المأمون لكتابه : إياكم[3] والشونيز فى كتبكم ، يعنى النقط [والاعجام[4]] . ولذلك قال ابن هانئ :

لم ترض بالإعجام حين كتبته ☆ حتى شكلت عليه[5] بالإعراب

(١٦)

ولا تغفل الصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، فقد قال أبو العيناء : ان بنى أمية هم الذين كانوا أمروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم ، فجرت عادة الكتاب

---

(١) غير واضح وجود "من" هنا ، ولو حذفت لاستقام الكلام .

(٢) فى العقد : « فانى سمعت سعيد بن حميد الكاتب يقول : لأن يشكل على الحرف . الخ » .

(٣) فى الأصل « اياى » والتصحيح عن العقد . (٤) زيادة عن العقد .

(٥) فى الأصل : « حتى كتبت السب » وهو تحريف ، والتصحيح عن أدب الكتاب ص ٦١ وهذا البيت من قطعة مستملحة لأبى نواس أولها :

ياكاتبا كتب الغداة يسبنى ☆ من ذا يطيق براعة الكتاب!

الى يومنا هذا على ما سنوه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تجعلونى كقدح الراكب ، ولكن اجعلونى فى أول الدعاء وأوسطه وآخره » صلى الله عليه وعلى آله وسلم أولا وأوسط وآخرا .

وأحب أن تجعل بدل الأشارة[1] التراب فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أتربوا كتبكم فإنه أنجح للحاجة"[2] .

(١٧)

ولا تدع التاريخ فانه يدل على تحقيق الأخبار وقربها و بعدها ، وآنظر الى ما مضى من الشهر وما بقى منه : فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قلت لكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قلت لكذا أيضا بقيت[3] . وقد قال بعض الكتاب : إن الماضى من الشهر تحصيه[4] والباقى لاتحصيه ، لأنك لاتدرى

---

(١) «الاشارة» بضم الهمزة هى نشارة الخشب ، والكلمة الثانية أكثر استعمالا ، جاء فى الجزء الأول من نفح الطيب ج ١ ص ٤٧٧ طبع ليدن : إن العربى كتب كتابا فأشار عليه أحد من حضر أن يذر عليه نشارة ، فقال :

لا تشنه بما تذر عليه * فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذر عليه * جدرى بوجنة حسناء

(٢) راجع ما جاء فى إتراب الكتب فى «منتخب كنز العمال» على هامش مسند ابن حنبل ج ٤ ص ٦٦ ، وظاهر أن الكتاب بدا فى أكثر ما وضع من الأحاديث خاصا بمهنة الكتابة وأدواتها . وقد نص الصولى على أنه لا يقال : « أترب كتابك » وهذا الشاهد ينقض ما قال .

(٣) انظر ص ١٨٠ وما بعدها من أدب الكتاب وص ٨٥ وما بعدها من كتاب الكتاب .

(٤) فى الأصل « أن تحصيه » .

أيتم الشهر أم[1] ينقص ؟ وليس هـذا بشىء ، لأن تاريخ الكتاب ليس من الأحكام فى شىء، وما على الكاتب أن يكتب إلا بما ظهر وتبيّن لا بما يظن .

(١٨)

ولا تجعل سَحاة[2] كتبك غليظة إلا فى العهود والسجلّات التى تحتاج الى خواتمها وطوابعها ؛ فإن محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر أخبر عنهم أن عبد الله بن طاهر كتب إلى العراق فى إشخاص كاتب كان كتب إليه فكتب وغلّظ سحاة كتابه ، فردّ الكتاب إليه ، فقدم عليه راجيًا لبرّه وجائزته ؛ فقال عبـد الله بن طاهر : إن كان معك مِسْحاة فاقطع حزم كتابك وانصرف وراءك .

وكذلك لا تُعَظِّم الطينة[3] ، ففى المثل : من عَظَّم الطينة فإنه ملوم[4] . ولا تطبعها إلا بعد عنواناتها ، فإن ذلك مراد بهم[5] .

وقد يجب عليـك علم إلصاق القراطيس ومحوها . ولم أر شـيئا فى إلصاقهـا ألطف من أن يُنقع الصمغ العربى فى المـاء ساعة حتى يذوب ثم يُلصق به ، وكذلك

---

(١) فى الأصل : « أو » .

(٢) السحاة مثل عظاة ، والسحاية مثل عظاية : ما شـدّ به الكتاب من خيط ونحوه ، تقول سحوت الكتاب أسحوه سحوا ، وسحيتـه أسحاه سحيا ، والواو أكثر . وزاد ابن درستويه : أسحيت الكتاب فأنا أسحيه إسحاء ، وإسحاءة حسنة فأنا مسح . واذا كانت كتب كثيرة قلت : سحّيتها ، بالتشـديد . فأنا أسحيها تسحية ، وأنا مسح وهو مسحى .

(٣) يقال : طينت الكتاب اذا جعلت عليه طين الخاتم ، ويقال طنت الكتاب أطينه . فاذا أمرت قلت : طين كتابك ، وان شئت قلت : طن كتابك . والطينة : الطابع على الكتاب والصك . والآن يستعمل الشمع مكان الطين ، فاذا أمرت قلت : شمع كتابك .

(٤) فى الأصل «مظلوم» وهو تحريف .

(٥) فى الأصل «بهم» بالباء الموحدة وهو تحريف .

ماء الكثير[1] أو النشاستج[2]، ثم تطويه طيا رقيقا وتجعله فى منديل نظيف ويوضع[3] تحت وسادة حتى يجف . وأما محوها[4] فعلى قدر لطف الكاتب وتأتيه ، غير أنه ينبغى له ألا يلقط السواد من القرطاس إلا بمثل الشمع المسخن واللبان الممضوغ وما أشبههما ، ثم يكون لقطه رويدا رويدا كلما لقط جانبا حوله الى الجانب الاخر .

(١٩)

وأما قراءة الكتب المختومة والتلطف لفض[5] خواتيمها ، فما لا نذكره خوفا من سفيه .

وأما تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه ففيه أدب ، وقد تعلقت العامة بالقُمّى والأصبهانى ، فيجب أن تبدَّل الحروف تبديلا يخفى . وألطف من ذلك أن تأخذ لبنا حليبا[6] فتكتب به فى قرطاس ، فيذُرّ المكتوب إليه عليه رمادا حارا من رماد القراطيس فانه يظهر . وإن كتب بماء الزاج وذرّ عليه العَفْص المدقوق بزاج[7] أو بماء العفص وذرّ عليه شيئا من الزاج أو ينقع شيئا من وشق[8] ثم تكتب به

(١) الكثير طلع النخل . وهو فى كتب اللغة « الكثر » بالفتح والتحريك .

(٢) قال الخفاجى فى شفاء الغليل فى كلامه على نشا انه معرب نشاسته وقال الجوهرى هو النشاستج فارسى معرب حذف شطره تخفيفا كما قالوا للنازل منا .

(٣) فى الأصل « يرفع » .

(٤) الضمير عائد على القراطيس ، وليلاحظ أن المؤلف ذكر الضمير قبل ذلك اذ قال : « ثم تطويه طيا رقيقا وتجعله فى منديل نظيف » .

(٥) فى الأصل « لنقض » وهو تحريف (انظر ص ١٢٤ من أدب الكتاب للصولى) .

(٦) فى الأصل « طيبا » وهو تحريف . (انظر صبح الاعشى ص ٢٢٩ ج ٩) .

(٧) فى الأصل « بجاز » وهو تحريف (انظر صبح الأعشى) .

(٨) الوشق : نوع من العشب ، وكان مما تبخر به العروس عند الجلوة ، كما أفادنا الأستاذ مرسيه ونحن نراجع معه هذه النصوص .

ثم نثرت عليـه الرماد فانه يظهر، وإن أحببته لا يُقرأ بالنهار ويقرأ بالليـل فاكتبه بمرارة السلحفاة[2] .

(٢٠)

وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب فزِن اللفظة قبـل أن تخرجها بميزان التصريف اذا عرَضت، والكلمة بعياره اذا سنحت؛ فربما مر بك موضع يكون مخرج الكلام اذا حسب أنا فاعل أحسن من أنا أفعل، وآستفعلت أحلى من فعلت .

وأدِر الألفاظ فى أماكنها[3]، وآعرِضها على معانيها، وقلّبها على جميـع وجوهها، حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فمتى صارت كذلك هجّنت الموضـع الذى

---

(١) فى هذه الأسطر ركاكة وضعف .

(٢) بمناسبة إخفاء ما فى الكتاب قال فى صبح الأعشى ص ٢٢٩ ج ٩

«وقد ذكروا لذلك طرقا : منها أن يكتب فى الورق بلبن حليب قد خلط به نوشادر، فانه لاترى فيه صورة الكتابة فاذا قرب من النار ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب فى الورق أيضـا بماء البصل المعتصر منه فلا ترى الكتابة ، فاذا قرب من النـار ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب فيما أراد من ورق أو غيره بماء قد خلط فيه زاج فلا تظهر الكتابة ، فاذا مسح بمـاء قد خلط فيه العفص المدقوق ظهرت الكتابة .

ومنهـا أن يكتب فى الورق غير المنشى بالشب المحلول بمـاء المطر ثم يلقيه فى المـاء أو يمسحه به فانه اذا جف ظهرت فيه الكتابة .

ومنها أن يكتب بمرارة السلحفاة فان الكتابة بها ترى فى الليل ولا ترى فى النهار .

ومنها أن تأخذ الليمون الأسود وعروق الحنظل المقلوة بزيت الزيتون جزأين متساويين وتسحقهما ناعمـا ثم تضيف إليهما دهن صفار البيض وتكتب به على جسد من شئت فانه ينبت الشعر مكان الكتابة وهو من الأسرار العجيبة ، فاذا أريد إرسال شخص بكتاب الى مكان بعيد فعل به ذلك ، فانه اذا نبت الشعر قرئت الكتابة . وفى ص ١٠٧ من أدب الكتاب كلمة عن الكتابة فى الرأس ، وفى ص ٢٢ من البيان المغرب طبع دوزى كلمة عن وضع الكتابة فى الخبز .

(٣) فى نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٨ : « وأدر الكلام فى أماكنه . الخ » .

أردت تحسينه . [وأفسدت المكان الذى أردت إصلاحه][1] وأعلم أن الألفاظ فى [غير][2] أماكنها [والقصد بها الى غير مظانها][1] كترقيع الثوب الذى اذا لم تتشابه رقاعه [ولم تتقارب أجزاؤه، خرج عن حد الجدّة و] تغير حسنه ، قال الشاعر :

إن الجديد اذا ما زيد فى خَلَق * تبين الناس أن الثوب مرقوع

(٢١)

وآرتصد لكتابك فراغ قلبك، وساعة نشاطك، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف : لأن سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها، إنما هو مع الشهوة المفرطة فى الشىء[3]، والمحبة الغالبة فيه، أو الغضب الباعث منه ذلك[4]. قيل لبعضهم : لم لا تقول الشعر؟ قال : كيف أقوله وأنا لا أغضب ولا أطرب .

وهذا كله إن جريت من البلاغة على عِرْق، وظهرت منها على حظ، فأما إن كانت غير مناسبة لطبعك، ولا واقعة شهوتك عليها، فلا تُنْضِ مطيتك فى التماسها، ولا تتعب بدنك فى ابتغائها، وآصرف عنانك عنها،ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم ، فان ذلك غير مثمر لك ولا مُجْدٍ عليك . ومن كان مرجعه فيها الى اغتصاب ألفاظ من تقدم ، والاستضاءة بكوكب من سبقه، وسحب ذيل حلة غيره ، ولم يكن معه أداة تولّد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه، الكلامَ الحر والمعنى الجزل ، فلم[5] يكن من الصناعة فى عِير ولا نفير .

---

(١) زيادة عن نهاية الأرب .

(٢) زيادة ضرورية .

(٣) فى الأصل : « الشر » .

(٤) انظر وصية بشر بن المعتمر فى البيان والتبيين ص ١٠٤ ج ١ ووصية أبى تمام للبحترى فى زهر الآداب ص ١٠١ ج ١

(٥) اقترن الخبر هنا بالفاء، وذلك جائز اذا كان المبتدأ عاما كما هنا . وكقوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

(٢٢)

على أن كلام العظماء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين ، على كل حال ، مما يفتق اللسان ، ويوسع المنطق ، ويشحذ الطبع ، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجية .

قال العتّابى : ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم ، وجرينا فيه من صنوف الآداب ، شيئا أصعب مراما ، ولا أوعر مسلكا ، ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم ، وأصالة الرأى وحسن التمييز منه واختياره ، من الصناعة التى خطبتها ، والمعنى الذى طلبته . وليس شىء أصعب من اختيار الألفاظ وقصدك بها الى موضعها ، لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها فى الفصاحة والحسن ، ولاتحسن[1] فى مكانِ غيرها . و بتمييز هذه المعانى ، ومناسبة طبائع جهابذتها ، ومشاكلة أرواحهم ، جعلوا الكتابة نسبا وقرابة ، وأوجبوا على أهلها حفظها .

سهل[2] بن وهب : الكتابة نفس واحدة تجزأت فى أبدان مفترقة ، ومن لم يعرف فضلها ، وجهل أهلها ، وتعدى بهم رتبتهم التى وضعهم[3] الله بها ، فانه ليس من الإنسانية فى شىء .

قالت البرامكة : رسائل المرء فى كتبه دليل على عقله ، وشاهد على غيبه .

قال الشاعر :

وتُنكر ود المرء فى لحظ عينه * وتعرف عقل المرء حين تكاتبُهْ

آخر :

وشعر الفتى يُبدى غريزة طبعه * و بالكتب يبدو عقله و بلاغته

---

(١) فى الأصل : « ولا يحسن » بالياء المثناة من تحت .

(٢) فى العقد « الحسن » .

(٣) فى الأصل : « وصفهم » .

الشعبى : يعرف عقل الرجل اذا كتب و[1] أجاب .

العتبى : عقول الناس مدونة فى كتبهم .

ابن المقفع : كلام الرجل وافد عقله .

(٢٣)

وشبهت الحكماء المعانى بالغوانى، والألفاظ بالمعارض؛ فاذا كسا الكاتب البليغ المعنى الجزل لفظا رائقا ، واعاره مخرجا سهلا ، كان للقلب أحلى ، وللصدر أملا ، ولكنه يق عليه أن ينظمه فى سلكه مع شقائقه كاللؤلؤ المنثور الذى يتولى نظمه الحاذق . والجوهرى العالم يُظهر باحكام الصنعة له حسنا هو فيه ، ويمنحه[2] بهجة هى له ، كما أن الجاهل إذا وضع بين الجوهر بين خرزة هجّن نظمه وأطفأ نوره . كان حبيب بن أوس ربما وقع على جوهرة فجعلها بين بعرتين . قال الشاعر :

ولو قرنت بدرٍّ فاخر خـــرزا * من الزجاج لقلنا بئس ما نظما

والياقوت حسن ، وهو فى جيد الحسناء أحسن ، وكذلك الشعر الجيد موثق ولكنه من أفواه العظماء آنق ، والتاج الشريف بهى المنظر وهو على الملك أبهى ، كما قال ابن [قيس][3] الرُّقيّات :

* يعتدل التاج فوق مَفْرِقه *

قال أبو العتاهية لابن مُنَاذِر : بلغنى انك تقول الشعر فى الدهر، والقصيدة فى الشهر، فقال : نعم لو رضيت لنفسى أن أؤلف تأليفك وأقول :

* يا عتب يادرة الغوّاص *

---

(١) ربما كان الأصوب « أو » .

(٢) فى الأصل : « ومنحة » .

(٣) زيادة ضرورية . واسم ابن قيس الرقيات : عبد الله ، وهو من شعراء العصر الأموى .

لقلت فى اليوم والليلة ألف قصيدة .[1]

وقال عمر بن لجأ لشاعر : أنا أشعر منك ، قال : ولم ؟ قال : لأنك تقول البيت وابن عمه وأنا أقول البيت وأخاه .[2]

---

(١) الذى فى الأغانى أنه اجتمع أبو العتاهية ومحمد بن مناذر، فقال له أبو العتاهية : يا أبا عبد الله، كيف أنت فى الشعر ؟ قال : أقول فى الليلة اذا سنح القول واتسعت القوافى عشرة أبيات الى خمسة عشر . فقال له أبو العتاهية : لكنى لوشئت أن أقول فى الليلة ألف بيت لقلت، فقال ابن مناذر : أجل ! والله اذا أردت أن أقول مثل قولك :

الا ياعتبة الساعة * أموت الساعة الساعة

قلت، ولكنى لا أعوّد نفسى مثل هذا الكلام الساقط ولا أسمح لها به، فخجل أبو العتاهية وقام يجر رجله ! ص ١١ ج ١٧ طبع الساسى .

وفى ص ٢٩ أن أبا العتاهية لقى ابن مناذر بمكة فجعل يمازحه و يضاحكه ثم دخل على الرشيد فقال : ياأمير المؤمنين ! هذا ابن مناذر شاعر البصرة يقول قصيدة فى سنة وأنا أقول فى سنة مابين ...... قصائد، فقال الرشيد : أدخله الىّ فأدخله اليه وقدّر أنه يضعه عنده، فدخل فسلم ودعا، فقال : ماهذا الذى يحكيه عنك أبو العتاهية ؟ فقال ابن مناذر : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زعم أنك تقول قصيدة فى سنة، وأنه يقول كذا وكذا قصيدة فى السنة، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو كنت أقول كما يقول :

الا ياعتبة الساعة * أموت الساعة الساعة

لقلت منه كثيرا، ولكنى الذى أقول :

إن عبد المجيد يوم تولى * هدّ ركنا ما كان بالمهدود

مادرى نعشه ولا حاملوه * ماعلى النعش من عفاف وجود

فقال له الرشيد : هاتها فأنشدنيها، فأنشده، فقال الرشيد : ما كان ينبغى أن تكون هذه القصيدة إلا فى خليفة أو ولىّ عهد ! مالها عيب إلا أنك قلتها فى سوقة ! وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا .

(٢) وردت هذه العبارة مختلفة بعض الشيء فى البيان والتبيين ص١٤٩ ج ١ طبع سنة ١٩٢٦

(٢٤)

فإن مُنيت[1] بحب الكتابة وصناعتها، والبلاغة وتأليفها، وجاش صدرك بشعر معقود، أو دعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنثور، وتهيأ لك نظم هو عندك معتدل، وكلام لديك متّسق، فلا تدعونّك الثقة بنفسك، والعجب بتأليفك أن تهجم به على أهل الصناعة؛ فانك تنظر الى تأليفك بعين الوالد لولده، والعاشق الى عشيقه[2]؛ كما قال حبيب:

ويسيء بالإحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مفتون[3]

ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره، فإن أصغوا اليه، وأذنوا له، وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطلبوه منك وامتزج[4]، فاكشف من تلك الرسالة والخطبة والشعر اسمه وانسبه الى نفسك. وإن رأيت عنه الأسماع[5] منصرفة، والقلوب عنه لاهية[6]، فاستدلّ به على تخلّفك عن الصناعة وتقاصرك عنها، واستربْ رأيك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة: فقد بلغنى أن بعض الملوك دعا إنسانا إلى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما فأخرج له كتابا قد غشّاه بالجلود وجمع أطرافه بالإبْرِيسَم وسوّى ورقه وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاما قد حبّره فيه وتمّقه عند نفسه، وجعل يستحسن ما لا يحسن، ويقف على ما لا يستثقل

---

(١) عبارة الجاحظ: «فان أردت أن تتكلف هذه الصناعة، وتنسب الى هذا الأدب، فقرضت قصيدة، أو حبرت خطبة، أو ألفت رسالة، فاياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، ويدعوك عجبك بثمرة عقلك الى أن تنتحله وتدعيه» البيان ص ١٤٨ ج ١

(٢) عبر الجاحظ عن هذا المعنى أدق تعبير اذ قال: «فلا تثق فى كلامك برأى نفسك، فانى ربما رأيت الرجل متماسكا وفوق المتماسك حتى اذا صار إلى رأيه فى شعره وفى كلامه وفى ابنه رأيته متهافتا وفوق المتهافت».

(٣) أنظر ديوان أبي تمام ص ٣٣١

(٤) يريد: امتزج بغيره من الجيد.

(٥) فى الأصل «العيون» وقد آثرنا كلمة الجاحظ.

(٦) فى الأصل «واهية» وهو تحريف.

قراءته حتى أتى على الكتاب، فقال له : كيف رأيتَ ماقرأتُ عليك؟ فقال : أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه . ففطن له ولم يعاوده إلى أن وقف به على تنُّور مسجور[1] ثم قذف بالكتاب فى النار . وهذا رجل فى عقله فضلة[2] وفيه تمييز .

وإنما البلية فيمن إذا بينت له سوء نظمه واختياره، ووقفته على سخافة لفظه، هجرك وعاداك .

(٢٥)

فاجعل هــذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك فى رسائلك و بلاغتك، ولا تخاطبن خاصا بكلام عام، ولا عاما بكلام خاص . فمتى خاطبت أحدا بغير ما يشاكله فقد أجريت الكلام غير مجراه وكشفته . وقصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه لقدر كلامك ورفع لدرجته، قال :

فــلم أمدحكَ[3] تفخيما لشــعرى ＊ ولكنى مدحت بك المديحا

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمـامها ونظامها، ومواردها ومصادرها . وتجنَّب ما قدرت الألفاظ الوحشـية ، وارتفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما بين الكلامين .

الجاحظ : مارأيت قوما أمثل طريقة فى البلاغة من هؤلاء الكتّاب، فإنهــم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سُوقيا .

وقال خالد بن صفوان : أبلغ الكلام مالا يحتاج الى كلام، وأحسنه ما لم يكن بالبدوى المُغْرِب، ولا القروى المُخْدَج[4]، الذى صحّت مبانيه، وحسنت معانيه، ودار

---

(١) مسجور : موقد .　　(٢) فضلة : زيادة وقوة .

(٣) فى الأصل « أمدحه » وهو تحريف . راجع ديوان أبى تمام ص ٧١

(٤) المخدج : الناقص .

على ألسن القائلين، وخفّ على آذان السامعين، ويزداد[1] حسنا على مرّ[2] السنين، بتحلية الرواة، وتنقية السُّرَاة .

والكاتب المستحق اسم الكتابة، والبليغ المحكوم له بالبلاغة، من اذا حاول صنعة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها، وظهرت من معادنها، وبدرت[3] من مواطنها، عن غير استكراه ولا اغتصاب .

حدثنا صديق للعَتّابى قال له : اعمل لى رسالة، واستَمدّه[4] مرة بعد أخرى؛ فقال له : ١٠ أرى بلاغتك إلا شاردة؛ فقال له العتابى : لما تناولت القلم تداعت علىّ المعانى من كل جهة، فأحببت أن أترك كل معنى يرجع الى موضعه، ثم أجتنى لك أحسنها .

أملى يزيد بن عبد الله أخو دينار[5] على كاتب له وأعجل عليه الإملال[6] فتعثّر قلم الكاتب عن تقييد إملائه؛ فقال متحرشا : اكتب ياحمار ! فقال الكاتب : أصلح الله الأمير ! إنه لما هطلت شآبيب الكلام، وتدافقت سيوله على حرف القلم كلّ القلم عن إدراك ماوجب عليه تقييده، فليتذكر الأمير عذرى . فكان جوابه أبلغ من بلاغة يزيد[7] .

---

(١) وقع المضارع هنا جميل . (٢) فى الأصل : « ممر » .

(٣) فى الأصل : « تدرب » وهو تحريف . وبدرت : أسرعت .

(٤) استمدّه : طلب منه ارخاء المدة؛ وفى العقد (فاستمدّه مدّة) .

(٥) فى العقد « ذبيان » .

(٦) يقال : أمليت الكتاب وأمللته . وقد نزل القرآن باللغتين جميعا . قال تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه » وقال : « فليملل عليه وليه بالعدل » . (أنظر ص ١٣٥ من أدب الكتاب) .

(٧) أنظر ماجاء فى توقف قلم ابن المقفع فى أدب الكتاب ص ١٥٨ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٣

(٢٦)

وكلما احلولى الكلام وعذُب ورقّ وسهلت مخارجه ، كان أسهل ولُوجا فى الأسماع ، وأشدّ اتصالا بالقلوب، وأخفّ على الأفواه، ولا سيما إذا كان المعنى البديع مترجما بلفظ[1] مونق شريف ، ومعبَّرا بكلام مؤلف رشيق، لم يِشِنه[2] التكلف بِميَسمه، ولم يفسده التعقد باستهلاكه، كقول ٱبن أبى كَريمة :

قفـاه وجه حسن والذى ✽ قفـاه وجه يشـبه الشمسا

فهجّن المعنى بتوعر مخارج الحروف . وأخذه الحسن بن هانئ فسهّله وقال :

✽ بذَ حسنَ الوجوه حسنُ قفاكا ✽

وكلاهما من حسان حيث يقول :

قفاؤك أحســن من وجهـه ✽ وأمك خـيـر من المـنـذر

وانظر الى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال :

شرست بل لنتَ بل قابلت ذاك بذا ✽ فأنت لاشك فيك السهل والجبل

وكتب عيسى بن لَهيعة كتابا الى بعضهم[3] فعقّد كلامه وجاز المقدار فى التنطع، فوقّع له :

أنى يكون بليغا ✽ من اسمـه كان عيّا
وثالث الحرف منه ✽ إذا كتبتَ مُسِيّا[4]

ودخل كاتب على مريض فوجده يئن لخـرج من عنـده فوجد طائرا يقال له "الشفانين" بباب الطاق، فاشتراه و بعث به اليه، وكتب كتابا يتنطع فيـه، و يذ كر

---

(١) فى الأصل : « لفظ » وهو تحريف .

(٢) على الصواب : « لم يسمه » .

(٣) فى العقد « الى أخيه أبى الحسن » .

(٤) الشطر الأخير غير واضح المعنى . وفى العقد : « اذا كتب شيئا » وهو تحريف أغمض .

أنه يقال له الشفانين شـفاء من الأنين . فأجابه : لو عطست ضباً لم تكن عندى إلا نبطيا [1] ، فأقصر عن بغضك [2] وسهّل كلامك . ومثله [3] بمخلد الموصلى يهجو حبيب بن أوس الطائى :

أنت عندى عربىّ [4] ◦ ليس فى ذاك كلام [5]
شـعر ساقيك ونخـ ◦ ـذيك خزامى وثُمام [6]
أنا ماذنبى إن كذّ [7] ◦ بنى فيـك الأنام
وقفّا يحلف ما إن ◦ أعرقتْ فيه الكرام

وسألنى بعض أهل العلم أن أكتب له قصة الى جعفر بن عبد الواحد القاضى وقال : اكتب لى قصة سهلة بليغة الألفاظ ، فقلت له : دعنى أكتب لك ما يصلح للقضاة ، فغضب وقال : ما أسأل أن تعطينى شيئا ، إنما أسألك هذا المعنى الرخيص . فاحتملت عتبه لذمام [8] ، فكتبت له قصة لا تصلح أن تدفع إلا لرؤبة بن العجّاج يقرؤها أو الطِّرِمّاح ، فلما حصلت بيد القاضى أراد قراءتها فاذا هى مغلقة عليه ، فقال له : أنت كتبت هـذه القصة ؟ قال : نعم ، قال : اذًا فاقرأها ، فذهب ليقرأها فاذا

---

(١) يشـير الى أن الضباب من طعام الأعراب . وكانت الشعوبية تعـير العرب بأكل الضباب . أنظر ص ١٥ من رسالة « الحنين إلى الأوطان » لجاحظ . وفى العقد بقية طويلة ، ص ٢١ ج ٣

(٢) كذا بالأصل والمعنى بها غير واضح . وفى العقد « بعضك » وهى جملة وقعت فى غير مكانها لأن المؤلف ماض فى الكلام عن تهجين ذلك الكاتب المتنطع .

(٣) لعل الصواب : وتمثل بقول مخلد الموصلى ، الخ .

(٤) فى الأصل « عربى » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل « عربى والسلام » والذى أثبتناه أوفق بمجموع القطعة كما رواها العقد .

(٦) ثمام بالثاء المثلثة بخلاف ما كان فى الأصل بالتاء المثناة من فوق .

(٧) البيت فى الأصل محرف ، والتصحيح عن العقد . وقد رتبنا البيتين الأخيرين بما يناسب رواية العقد لأنها أوفق . وللقطعة بقية ، فلتراجع هناك .

(٨) يريد : لعهد كان له .

هى بالسودانية[1] استعجاما عليه؛ فقال له : أصلح الله القاضى إنما أقرؤها فى بيتى؛ فقال له : فاطلب حاجتك اذًا فى بيتك! فرجع إلىّ غضبان أسِفًا يشتم ويؤذى، وسألنى أن أكتب له قصة على ما أرى ، فكتبت له كتابا يشبه أن يكون من مثله الى القضاة، فقرأها وقضى حاجته، وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما !

والكتاب اذا لم يكن شبيها بحاجة صاحبه كان أحد الأسباب المانعة .

(٢٧)

والمعانى كلّها ممتثلة[2] والكلام مشبعا ولكن سياسته صعبة وتأليفه شديد إلا على جهابذته وفرسانه أمراء الكلام يصرّفونه كيف شاءوا . ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه ولفظُه معناه ، ويكون اللفظ أسبق[3] الى الأسماع من معناه الى القلوب .

الجاحظ : كان لفظه فى وزن إشارته، وطبعه فى معناه فى مطابقة معناه .

ذكر الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال : ماكنت أدرى ألفظه آنق أم معناه، أو معناه أجزل أم لفظه .

والمعانى وإن كانت كامنة فى الصدور فانها مصورة فيها، ومتصلة بها، وهى كاللآلئ المنظومة فى أصدافها، والنار المخبوءة فى أحجارها، فإن أظهرته من أكنانه وأصدافه تبين حسنُه، وإن قدحت النار من مكانها[4] وأحجارها انتفعت بها، وإلا

(١) لعل أصل الجملة : «فاذا هى أشبه بالسودانية استعجاما عليه» وبذلك يتضح معناها .

(٢) فى هذه الكلمة وما بعدها غموض ولا موجب لنصب « مشبعا » . والأستاذ مرسيه يقترح كلمة «متماثلة» وكلمة «مشعب» .

(٣) فى الأصل : « الأسبق » وهو تحريف . انظر العمدة ص ١٦٣ ج ١ وفى نهاية الأرب : «وقالوا : لايستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه الى قلبك أسبق من لفظه الى سمعك» ص ٨ ج ٧

(٤) لعله : « مكامنها » .

بقيت محجوبة مستورة ، وإنما[1] يستثار الكامن منها، ويُستخرج المستسِر من جواهرها، بقدر حذق المستنبِط، وصواب حركات المستخرج، وقصد إشارته، ولطف مذاهبه . وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ولا يصيب إشارته، وكلما كان الكلام أفصح، والبيان أوضح، كان أدلّ على حسن وجه المعنى.

[وقد شبهوا[2] المعنى] الخفى بالروح الخفى، واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر. واذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جَزْل لم تكن العبارة واضحة، ولا النظام متسقا.

(٢٨)

والدالّ على المعنى أربعة أصناف : لفظ، وإشارة، وعَقْد، وخط .

وذكر ارسطاطاليس خامسا وهى التى تسمى النصبة ، وهى الحالة الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفظ والمشيرة اليه بغير يد ، وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض، وفى كل صامت وناطق، وهى داخلة فى جملة هذه المعانى الأربعة وخارجة منها بالحلية .

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبتها، وحلية غير مشاكلة لحلية أختها، غير أنها فى الجملة كاشفة عن أعيان المعانى . وأوضح هذه الدلائل صنفان : وهما اللسان والقلم ، وكلاهما يترجمان ويدلان على القلب ، ويستمليان منه، ويؤديان عنه ما لا تؤدى هذه الأصناف الباقية .

وأما اللسان فهى[3] الآلة التى يخرج الانسان بها من حد الاستبهام الى حد الإنسانية ، ولذلك قال صاحب المنطق : حد الانسان الحى الناطق [وقال على بن

---

(١) فى الأصل : «وربما» .

(٢) زدنا كلمة «وقد شبهوا المعنى» ليتسق الكلام، ونظنها سقطت من الناسخ .

(٣) أنث الضمير مراعاة للخبر . وفى العقد «فهو»

عبيدة :] إنما يبين عن الإنسان اللسان، وعن المودّة العينان . [وقال هشام بن عبد الملك[1] :] والله سبحانه رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده، وما جعل الله من عبّر عن شيء مثلَ من لم يعبر عنه .

وقال آخر : الرجل مخبوء تحت لسانه . وقالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه .

وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران لسانه * ومعقوله والجسم خلق مصوّر

[فإن ترها راقتك يوما فربما * أمرّ مذاق العود والعود أخضر][1]

الأعور التيمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم[2]

وقال آخر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

الطائى :

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من خدم الفؤاد

(٢٩)

والخط صورة معروفة، وحلية موصوفة، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف، لأنه ينوب عنها فى الإيضاح عند المشهد، ويفضُلها فى المغيب [ولأن الكتب تقرأ فى الأماكن المتباينة، والبلدان المتفرقة، وتدرس فى كل عصر وزمان، وبكل لسان، واللسان وإن كان زلقا فصيحا لا يعدو سامعه، ولا يجاوزه الى غيره][3] .

---

(١) زيادة عن العقد .

(٢) هذا البيت نسب الى زهير .

(٣) زيادة عن العقد .

وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله عز وجل : ﴿ الذى علم بالقلم[1] علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وأقسم به كما أقسم بغيره ، ثم أقسم بما يكتبه القلم إفصاحا عن حاله ، وإعظاما لشأنه ، وتنبيها لذكره ، فقال : ﴿ وما يسطرون ﴾[2] .

ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير[3] ، ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحى الفكر ، وسلاح المعرفة ، ومحادثة الأخلاء على التنائى ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومستودَع الأسرار ، وديوان الأمور ، وترجُمان القلوب ، والمعبّر عن النفوس ، والمخبر عن الخواطر ، ومورث الآخر مكارم الأوّل ، والناقل اليه مآثر الماضى ، والمخلّد له حكمته وعلمه ، والمسامر للعين بسر القلب ، والمخاطب عن الناصت ، والمجادل عن الساكت ، والمفصح عن الأبكم ، والمتكلم عن الأخرس ، الذى تشهد له آثاره بفضائله ، وأخباره بمناقبه .

(٣٠)

وقد وقعت[4] البلاغة من العلم[5] علو[6] القدر وباذخ العز كأبى مسلم صاحب الدولة فرّقت شملَه ، وبدّدت جمعَه ، ونقضت بَرْمه ، وأفسدت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه وتفطنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه وشدّة شكيمته ، وامتناعه على أبى جعفر ونِفاره عنه ، كيف استفزه ابنُ المقفع وصالح بن عبد القدوس وجبل ابن يزيد واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أقلامهم ، حتى نزل من باذخ عزه ،

---

(١) فى الأصل : « العلم » وهو تحريف .

(٢) أكثر ما جاء فى هذا الموضوع مقتبس من كلام الجاحظ . راجع البيان والتبيين ج ١ ص ٦٨ — ٧١

(٣) فى نهاية الأرب ج ٧ ص ١٣ « بهجة الضمير » وما هنا أدق .

(٤) لعل الصواب : « وضعت » لتقابل « رفع » فيما بعد .

(٥) لعله « القلم » .

(٦) لعل الصواب : « علىّ » .

وجاء مبادرا حتى وقع فى الشَّرَك المنصوب له، فتفرق جمعه، وانطفأ نوره، وصار خبرا سائرا، ورسما داثرا[1].

ورفع القلم خاشعَ الطرف، صغيرَ الخطر، لئيم الجنس، درَج من عش التجار، ونشأ بين المكيال والميزان، كيف أشالت البلاغة بضَبْعيه، ورفعت من ناظريه، حتى شافهت به عَنان السماء، ورفعت بناءه فوق البناء، حتى طلبه الراكب، وقصده الطالب، وخشعت له الرجال، ولحظته العيون بالوقار، وتمكن من الصنائع، ومُدّت نحوه الأصابع، فشُكِرتْ منه اللفظةُ، ورُجيتْ منه اللحظة، كمحمد ابن عبد الملك بن الزيات، وفيه يقول على بن الجَهْم :

أحسن من عشرين بيتا سُدى * جمعك معناهن[2] فى بيت

ما أحوج الملكَ الى مَطْرة * تغسل عنه وَضَر الزيت

فأجابه محمد بن عبد الملك :

رقيتَ فى القول الى خطة * قدرَك فيها قد تعديتْ

قيَّرتم الملك فلم نُنقه * حتى غسلنا القار بالزيتْ

ومدحه حبيب بن أوس يمدحه[3] ويصف قلمه :

لك القلم الأعلى الذى بِشَباته[4] * تصاب من الأمر الكُلى والمفاصل

وكان محمد من ألطف الناس ذهنا، وأرقّهم طبعا، وأصدقهم حسا، وأرشقهم قلما، وأملحهم إشارة، اذا قال أصاب، واذا كتب أبلغ، واذا شعر أحسن، واذا اختصر أغنى عن الاطالة : أمره الواثق أن يتلطف بعبد الله بن طاهر، ويعلمه

---

(١) فى الأصل : « واثرا » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «معناهم» وهو تحريف .

(٣) يظهر أنه سقطت كلمة «فقال» .

(٤) فى الأصل : « بثباته » وهو تحريف . وفى العقد « بسنانه » .

انه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم، وفوض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم، فكتب : أما بعد، فان أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما فى يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله فى شمالك[1]، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصرانى الكاتب فقال :

بأبى وأمى ضاعت الأحلام؟ * أم ضاعت الأذهان والأفهام؟

من صد عن دين النبى محمد * أله بأمر المسلمين قيام؟

إلا تكن أسيافهم مشهورة * فينا فتلك سيوفهم أقلام

(٣١)

قال عبد الرحمن بن كيْسان : استعمال القلم[2] أجدر بإحضار الذهن عند تصحيح الكتّاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام .

ولم يُختلف فى شرف القلم وإنما اختُلف فى كيفية البلاغة وماهيتها . وقد مدحها كل قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم، فقال صاحب اليونانيين : البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام .

الرومى : البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة[3] .

الفارسى : هى معرفة الفصل من الوصل .

---

(١) نظير هذا ما قاله الرشيد ليحيى بن خالد : يا أبت إنى أردت أن أجعل الخاتم الذى فى يد الفضل الى جعفر . وقد احتشمت منه فاكفنيه . فكتب اليه يحيى : قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن يحول الخاتم من يمينك الى شمالك (ص ٦٨ ج ٢ زهر الآداب) .

(٢) فى الأصل : «الكلام» وهو تحريف . ورواية الجاحظ : «استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب ،الخ» حـ ١ ص ٧١

(٣) الذى فى البيان والتبيين أن هذا جواب الهندى راجع البيان صفحة ٧٥ ، ٧٦ ج ١ قاله ابن المدبر اختصر هنا ما بسطه الجاحظ هناك . وانظر زهر الآداب ج ١ ص ١٠٥

الهندى : هى البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن يدع[١] الإفصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الإفصاح أوعر طريقا ، وربما كان الاطراق عنها[٢] أبلغ فى الدَّرَك وأحق بالظفر .

غيره : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة[٣] الحذق بما التبس من المعانى وغمض ، وبما شرد عليك من اللفظ وتعذّر . ثم قال : وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته[٤] أن تكون الشمائل معتدلة ، والألفاظ موزونة ، واللهجة نقية ، فان جامعَ ذلك السنَّ والسمتَ والجمالَ وطولَ الصمت فقد تم كل التمام[٥] .

وقيل لهندى : ما البلاغة ؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها : أول البلاغة احتمال[٦] آلة البلاغة ، وذلك أن يكون البليغ رابط الجاش[٧] ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه فضل للتصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ويصفّيها[٨] كل التصفية ، ويهذبها غاية التهذيب ، ولا يكون

---

(١) عبارة الجاحظ : «ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها ، الخ» .

(٢) عبارة الجاحظ : الاضراب عنها صفحا .

(٣) يظهر أن كلمة «قلة» من زيادة الناسخ وفى البيان : «فلة الحرف» وهى أدخل فى الغموض .

(٤) يظهر أنه سقطت كلمة «ورونقه» وبها تتم السجعة ، وهى مثبتة فى البيان .

(٥) زاد الجاحظ : «وكمل كل الكمال» .

(٦) فى البيان وزهر الآداب : « اجتماع » وهى المناسبة للمقام هنا .

(٧) الجاش : رواع القلب اذا اضطرب عند الفزع (قاموس) .

(٨) فى الأصل : « يصمها كل التصمية » وهو تحريف . والتصحيح عن البيان وزهر الآداب .

كذلك[1] حتى يصادف فيلسوفا حكيما[2] عليما ومن قد تعوّد[3] حذف فضول[4] الكلام و إسقاط مشتركات الألفاظ[5] .

أنو شروان لبزر جمهر : متى يكون العيّ بليغا؟ فقال : اذا وصف بليغا .

أرسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة .

بشر بن خالد[6] : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير .

خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها إصابة المعنى ، والقرع[7] بالحجة .

عمر بن عبد العزيز : البليغ من اذا وجد كثيرا ملأه ، واذا وجد قليلا كفاه .

ابن عُتْبة : البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجة ، والاستغناء بالقليل عن الكثير .

بعضهم[8] : إنى لأكره للانسان[9] أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار عقله[10] ، كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلا عن مقدار لسانه وعلمه[11] .

---

(١) فى البيان وزهر الآداب : « ولا يفعل ذلك » .

(٢) عبارة الجاحظ والحصرى : « حتى يصادف حكيما ، أو فيلسوفا عليما » .

(٣) هكذا فى الأصل ، وفى زهر الآداب : « قد تعود » وهو أصح .

(٤) فى البيان وفى الأصل : «فضل» وقد آثرنا عبارة زهر الآداب .

(٥) فى الأصل : «أسقط مشترك اللفظ» . (راجع زهر الآداب ج ١ ص ٩٥ والبيان ج ١ ص ٧٩) . (٦) فى العقد «جعفر» .

(٧) عبارة البيهق : « والقصد لحجة » انظر المحاسن والمساوى ص ٤٢٧ وهى كذلك فى العقد .

(٨) هو محمد بن على بن عبد الله بن عباس (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٤) .

(٩) كلمة « للانسان » غير موجودة فى رواية الجاحظ لأن محمد بن على قال هذه العبارة فى بلاغة بعض أهله . (١٠) رواية الجاحظ « علمه » .

(١١) رواية الجاحظ : « كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله » وهى أدق .

يكفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع[١] .

عمرو بن عبيد[٢] : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلّغك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصّرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيّك . فقال السائل[٣] : ليس هذا أريد . فقال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع[٤] ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول ؛ قال : ليس هذا أريد . [قال[٥]] قال النبي عليه الصلاة والسلام : "إنا معاشر الأنبياء بكّاءون[٦]" وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله . فقال له السائل : ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت[٧] ، فقال : ليس هذا أريد . فقال : فكأنك إنما تريد تخيّر[٨] اللفظ فى حسن إفهام [قال[٩] : نعم ، قال :] إنك [إن[٩]] أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ،

---

(١) لم يذكر المؤلف صاحب هذه الحكمة ، وقد وردت فى الأصل متصلة بما قبلها ، وذلك خطأ ، وهى من كلام الامام ابراهيم بن محمد (أنظر البيان والتبين ج ١ ص ٧٥ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٥

(٢) فى زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ طبع المطبعة الرحمانية ونهاية الارب للنويرى (ج ٧ ص ٧ طبع دار الكتب المصرية) : قيل لعمرو بن عبيد الخ وهو أنسب .

(٣) هو حفص بن سالم كما فى زهر الآداب ج ١ ص ٩٤

(٤) فى الأصل «يسمع» وهو تحريف بدليل قوله : «ومن لم يحسن الاستماع» وهى مثبته فى زهر الآداب «يستمع» وكذلك فى البيان والتبين .

(٥) الزيادة عن زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ ونهاية الأرب ج ٧ ص ٧ للربط .

(٦) من البك، وهو قلة الكلام . وفى نهاية الأرب والبيان والتبين : «بكاء» ومفردها بكى، .

(٧) رواية الجاحظ : « كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت » وهى أرق وأدق . (أنظر ص ٩٠ حـ ١) .

(٨) رواية الجاحظ «تخير اللفظ» .

(٩) الزيادة عن نهاية الأرب وزهر الآداب .

المقبولة عند الأذهان، رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت من الله سبحانه جزيل الثواب .

الخليل بن أحمد : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقًا ، ولتلك الحال وَفْقا ، وآخر كلامك لأوله مشابها ، وموارده لمصادره موازنا[1]، فافعل[2] . واحرص أن تكون لكلامك متهما و إن ظرُف، ولنظامك مستريبا و إن لطُف ، بمواتاة آلتك لك ، وتصرف إرادتك معك ، فافعل إن شاء الله .

⁂

وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين ، ولا لمستها أكف المفوهين ، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ، ولا سبق الى ألفاظها أذهان الناطقين ، فاجعلها مثالا بين عينيك ، ومصوّرة بين يديك ، ومسامرة لك فى ليلك ونهارك ، تهطل عليك شآبيب منافعها ، و يظلك منها بركاتها ، وتوردك مناهل بلاغاتها ، وتدل على مَهْيَع رشدها ، وتصدرك وقد نقع ظمؤك بينابيع بحر إحسانها ، إن شاء الله عز وجل .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الخبر غير مطابق ، وربما كان الأصوب : « وموارده لمصدره موازنا » .

(٢) فى العقد : « وقيل للخليل بن أحمد : ما البلاغة ؟ فقال : ماقرب طرفاه ، وبعد منتهاه » .

فهـــرس الموضـــوعات

فهرس الأعلام

حرف الفاء

حرف القاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف الياء

du Prophète. Je n'affirme pas qu'ils rimaient régulièrement, quel que fût le sujet de leurs discours, mais je suppose qu'ils devaienl, suivant en cela l'exemple du Coran employer la rime quand ils traitaient un un thème pathétique et cherchaient à toucher les coeurs.

Je n'ignore pas d'ailleurs, qu'il existait alors une école hostile à la prose rimée pour le motif que les Kahen l'avaient adoptée ; mais c'est précisément parce que cette prévention existait qu'Al-gahiz a défendu avec chaleur cette manière d'écrire en rappelant que le Coran rime souvent et que le Prophète lui même rimait.

Il me faut noter ici qu'Al Gahiz rimait également[1] mais sans s'y astreindre régulièrement; enfin, Je dois répéter qu'on peut trouver de la prose rimée chez beaucoup d'écrivains des trois premiers siècles. On admet même que la modê en était répandue chez les Bédouins : الأعراب

Aujourd'hui, on ne la rencontre plus que rarement ; il y a là une réaction naturelle contre l'abus qu'on en a fait après le IVe siècle, et les écrivains modernes considèrent le procédé comme prafaitement banal. On peut la trouver cependant chez les auteurs qui désirent exprimer quelque chose de sentimental ou donner à leur langue un tour artistique.

Ahmad Chawki احمد شوقي et Hafiz Ibrahim حافظ ابراهيم par exemple, riment souvents même en prose. Mais ce sont des poètes qui se plaisent à orner leurs phrases avec la sonorité de la rime.

Zaki Mubârak

Paris le 11 Septembre 1930

(1) Lettres. p. 5.

Library Press, 943-1930-1000 copies.

Abou Hilal El-'Askari أبو هلال العسكرى nous apprend que le Prophète rimait lui-même, mais qu'il évitait cependant de le faire lorsqu'il estimait que la rime risquait de fausser le sens de la phrase (1).

Il nous dit, autre part, que la prose rimées est d'autant plus estimée qu'elle reste agréable et naturelle. (2)

Ibn Khafaga ابن خفاجة dans son remarquable ouvrage intitulé: Serr El-Façaha, سر الفصاحة dont le manuscrit se trouve à la Bibliothèque Egyptienne a étudié cette question de la manière la plus profonde. D'après lui, la plupart des écrivains avaient adopté la mode d'Al-Sag'; seulement les une rimaient régulièrement tandis que les autres ne le faisaient qu'occasionnellement et suivant les circonstances. (3)

Les rimes recommandables sont, à son avis, celles qui viennent compléter le sens, l'étayer et le renforcer.

Sont mauvaises, au contraire, celles que l'écrivain accumule automatiquement, sans autre souci que de donner de la sonorité à sa prose et sans s'inquiéter du sens.

Al-gahiz cite de temps en temps des exemples de prose rimée; il semble considérer ce mode d'écriture comme un art précieux. et même il a défendu la rime dans la prose d'un point de vue théorique. D'après lui, aux premier et deuxième siècle les Kossas القصاص rimaient dans leurs Kaças قصص (4); on connait ces lettrés fameux qui s'en allaient dans les mosqnées pour y donner des conférences publiques, et sur tous les sujets. Leur culture était tellement vaste, en effet, qu'ils pouvaient parler sur l'histoire générale, la littérature, la jurisprudence et aussi commenter le Coran aussi bien que les traditions

(1) Al-Sina'ataïn الصناعتين p. 201.
(2) Ibid p. 109.
(3) p. 184 à 190.
(4) Al Bayan. p. 192-196. vol. 2 (ed 1929).

J'insiste sur cette question, parce que là-dessus je ne saurais partager l'opinion de Mr. Marçais non plus que celle de Mr. Taha Hossein طه حسين. Ces deux éminents professeurs de la littérature arabe affirment que la mode de la prose rimée ne s'est vraiment développée qu'à partir du IVe siècle de l'hégire.—Ma thèse est au contraire, que cette mode est excessivement ancienne. Le Coran, qu'on peut considérer littérairement comme le plus ancien et le plus authentique ouvrage de l'époque de la prophétie et qui touche encore à l'ère antéislamique, rime souvent. Les discours des Kahen الكهان, des prêtres de cette période antéislamique étaient rimés, on en convient.

J'affirme que l'habitude s'en est continuée après le Coran; j'en suis sûr, d'abord parce que c'est naturel et aussi parce que nous en pouvons contrôler les traces.

Mr. Marçais est d'avis qu'elle a passé de mode au temps des Banou-Omayya, il me disait même un jour en Septembre 1929; qu'Ibn-El-Mokaffa' ابن المقفع, ignorait ce qu'est un Sag' سجع. Je crois au contraire, qu'il le savait très bien, puisqu'il a dit lui-même, qu'on peut trouver de l'éloquence dans une rime [1] d'ailleurs en fait, il rimait quelquefois[2]. Bachar Ibn Bord بشار بن برد, était également connu pour rimeur [3].

Ibn El Athir ابن الأثير nous dit que le Coran a deux manières de balancer les périodes: la première est le sag' السجع; la seconde la *moizana* الموازنة[4]. Or nous savons très bien que le balancement des phrases par la *moizana* produit sur la construction générale de la période le même effet que la rime.

---

(1) Cf. Al-Bayan p. 91. vol. I.
(2) Adab El-Kuttâb. p. 68.
(3) Zahr El-Adâb. p. 121. vol. 2.
(4) Al Mathal El Saer المثل السائر p. 170

Au début de la présente introduction nous avons constaté que les preuves formelles manquent pour attribuer de façon suivie la Lettre vierge à Ibn El Modabber. Quelques mots d'Al Soli, الصولي seulement établissent qu'il s'était occupé de l'art d'écrire.

Nous allons donc arriver à cette conclusion c'est que deux noms peuvent également être mis en avant comme ceux de l'auteur de ce morceau : Ibn El Modabber et Al Chaïbani. Chacun d'eux s'appelait aussi Ibrahim Ibn Mohammed ; et ainsi s'est produite la confusion, sans doute.

Quant à la lettre Vierge, en elle-même, son intérêt n'en est pas diminué par cette imprécision ; il est dommage seulement qu'elle ressemble, trop par là à ce poème arabe dont soixante dix poètes, sans plus, prétendaient être l'auteur.

XIII

Il nous reste à jeter un coup d'œil sur ce qu'Al-Gahiz a écrit à ce sujet.

Nous remarquerons d'abord que le style d'Ibn El-Mudabber ressemble beaucoup à celui d'Al-gahiz. On trouve même dans la Lettre Vierge certains paragraphes qui sont empruntés à l'œuvre d'Al-gahiz en particulier ceux dans lesquels il définit l'éloquence.(1) Ces emprunts s'expliquent d'eux-mêmes ; d'abord parce que l'œuvre d'Al-gahiz était accessible à tous, et ensuite parce que ce dernier étant l'ami intime d'Ibn El-Mudabber, celui-ci devait être tenté de le suivre ou plutôt de l'imiter.

L'œuvre d'Al-gahiz est longue et de pensée profonde ; elle mérite une étude particulière. Nous allons donc nous borner ici à examiner son avis sur une question qu'ont omise aussi bien Ibn Durustuyah, que Al-Sôli ou Ibn El-Mudabber : celle de la rime en prose : السجع

(1) Cf. Al-Bayan البيان والتبين p. 90-91 — vol. I.

les questions qui concernent les droits religieux et particulièrement les héritages. (1)

Voilà qui nous intéresse pour l'organisation administrative du monde arabe, à cette époque, l'auteur d'Al-'Ikd n'a rien dit du costume qui distinguait ces spécialistes entre eux, mais nous savons par ailleurs, que leur tenue n'était pas uniforme; et notamment, d'après Al-Gahiz الجاحظ que les commis aux armées portaient des vêtements spéciaux et n'avaient droit pour montures qu'à des ânes, même quand les mulets étaient nombreux.(2)

XII

Il nous reste à faire ressortir un fait important: Ibn 'Abd Rabbih s'est beaucoup servi de la Lettre Vierge, الرسالة العذراء mais sans la citer expressement. L'auteur des extraits ne serait pas Ibrahim Ibn Mohammad Ibn El Mudabber, ابراهيم بن محمد بن المدبر mais bien Ibrahim Ibn Mohammad Al Chaïbani. ابراهيم بن محمد الشيباني (3)

Les extraits d'Ibn 'Abd Rabbih sont parfois un peu plus détaillés. Qui était donc cet Ibrahim Al Chaïbani ?

J'ai cherché l'an dernier, à retrouver sa biographie, je n'y suis pas parvenu. Je suppose cependant qu'il a dû vivre dans la dernière partie du IIIe siècle. Car il se réfère souvent à Al Gahiz, الجاحظ comme nous l'avons indiqué dans la notice qui accompagne le texte arabe.

---

(1) Ibid vol 3 page 14 et 15. voir également Sobh él A'cha صبح الأعشى p.142 vol 1 Certains auteurs donnent au mot Kateb ce sens d'emdloyé de bureau. D'autres au contraire, comme l'auteur de سلوك المالك في تدبير الممالك l'emploient avec le sens qu'on donnait en France au mot : commis, au XVIIe siecle. Colbert était un *commis* aux finances, comme Louvois à la guerre.

(2) Al Bayan vol. 3 page 60

(3) cf les 11-12-19

constamment chez les auteurs d'alors le conseil de vivre en bons termes avec ces personnages puissants.

Mais il y avait autre chose aussi. Les écrivains étaient alors réputés comme libres-penseurs et libertins. Les hérisies audacieuses, c'est dans leurs divans qu'elles prenaient naissance: les poèmes licencieux. les lettres légères et charmantes qui chantent l'amour et la beauté dans toutes leurs manifestations, c'est encore de là qu'ils sortaient; en un mot, toutes les attaques contre l'Islam, toutes les atteintes à sa tradition s'élaboraient dans ces bureaux.

Ibn 'Abd Rabbih nous a renseigné sur les conditions dans lesquelles fut changée l'habitude d'employer la langue grecque pour les calculs; il nous apprend que c'est Solaïman Ibn Sa'd سليمان بن سعد qui proposa à 'Abd El-Malek ibn Marwan عبد الملك بن مروان l'abandon du grec pour adopter l'arabe[1], et que Kahzam قحزم réalisa une réforme analogue en substituant également l'arabe au persan.[2]

Les détails qu'il nous donne sur les diverses catégories de scribes sont bien curieux aussi. On trouvait des écrivains pour la correspondance, des commis chargés des impôts, d'autres affectés à l'armée; certains s'occupaient de la police et autres des tribunaux. Chacune de ces spécialités réclamait une culture particulière; les écrivains de lettres, par exemple, devaient connaître à fond les subtilités de la langue. afin de pouvoir correspondre aussi bien avec un souverain qu'avec les particuliers. Les commis aux impôts ne devaient pas ignorer le calcul, l'agriculture, non plus que la valeur d'estimation du bétail ou des bijoux; ceux de l'armée étaient des calculateurs; ceux de la police connaissaient la juridiction criminelle, tandis que ceux des tribunax devaient être experts sur toutes

---

(1) Ikd vol 3 page 10
(2) Ibid " " " 11

Quand il cite Isma'il Ibn Ibrahim اسماعيل بن ابراهيم comme l'inventeur de l'écriture, il répète évidemment un on-dit et ne se préoccupe guère d'apporter des preuves de même lorsqu'il affirme qu'au temps où naquit l'Islam, on ne trouvait pas plus d'une quinzaine de personnes qui sussent écrire. Il les énumère et donne leurs noms, mais comme tous appartenaient au milieu Koraichite, l'argument est médiocre pour la société arabe, en général.

On ne saurait douter, en effet, que la majorité des Arabes fût, alors, illétrée ; mais ne faut-il pas se souvenir également que les historiens musulmans ont toujours eu à cœur de dénigrer l'époque antéislamique afin de donner à l'Islam le caractère d'une transformation plus rayonnante et de montrer vraiment la croyance nouvelle comme la lumière, qui dissipe les ténèbres ? Certes, l'Arabie doit sa gloire à l'Islam, mais nous ne devons pas oublier que l'ère antéislamique en avait été la préparation et qu'elle avait même présenté les caractères d'une véritable Renaissance.

Il semblerait à bien entendre Ibn 'Abd Rabbih que le métier de secrétaire eût été alors assez sujet à cautions et que ceux qui le faisaient manquassent parfois de moralité.

Il s'étonne par exemple qu'Al - Hasan El-Basri الحسن البصري ait occupé un pareil poste malgré sa naissance noble, ses scrupules et son désintéressement ;[1] pour Al-Ch'abi الشعبي, il fait la même remarque ![2].

L'observation devait être juste ; comment en être surpris d'ailleurs ? Le métier abondait en tentations périlleuses ; c'étaient les commis, en effet, les écrivains, qui répartissaient l'impôt et par là tenaient le peuple à leur merci ; car il n'existait pas alors chez les Arabes de règle générale et fixe pour les impositions ; tout était laissé au bon plaisir des secrétaires d'Etat. Aussi rencontre-t-on

---

(1) Al-'Ikd El-Farid العقد الفريد vol. 3, p. 9.
(2) Ibid - - 3, p. 10.

XI

Ahmad Ibn ‘Abd Rabbih أحمد بن عبد ربه a fourni dans son ouvrage: Al-‘Ikd El-Farid العقد الفريد des indications fort intéressantes sur l'art d'écrire et les différentes manières qu'on remarque chez les écrivains. Les renseignements qu'il nous donne représentent assez exactement les connaissances générales qu'on avait de son temps sur la matière, après avoir nommé celui qu'il considère comme l'inventeur de l'écriture et de l'alphabet, il énumère les diverses façons de commencer une lettre, de la cacheter, d'y inscrire la date et l'adresse. Il met en lumière la valeur et l'importance sociale du métier d'écrivain et cite un grand nombre de ceux parmi les meilleurs qui occupèrent le poste de secrétaires auprès des Califes Abou-Bakr أبو بكر, ‘Omar عمر, ‘Othman عثمان et ‘Ali علي. Il y joint les noms de ceux qui ont rempli le même rôle chez d'autres personnages importants, et termine en parlant de ceux auxquels leur métier a conféré une véritable puissance.

On trouve, également, dans son ouvrage des aperçus curieux sur les qualités nécessaires à l'écrivain, remarquons ici en passant que le mot kateb كاتب se traduirait plus exactement peut-être pour cette époque là, par scribe, ou encore, dans certains cas par: commis aux écritures. Ibn ‘Abd Rabbih parle aussi de l'éloquence, mais s'intéresse de même à des détails matériels, au calame, ou à l'encre qu'il convient d'employer.

Il décrit les tawki‘ التوقيعات, ces réponses brèves qui condensent beaucoup de sens en peu de mots; il donne enfin comme exemples-afin d'illustrer les observations,- de très nombreuses lettres fort intéressantes.

Les cinquante-cinq pages ainsi consacrées par Ibn ‘Abd Rabbih à l'art d'écrire sont aujourd'hui pour nous des documents précieux; mais on aurait tort d'y chercher autre chose que l'œuvre d'un compilateur habile, et par exemple de l'originalité.

Il semble que les premiers Arabes écrivaient leurs lettres en un seul exemplaire : d'après Al-Sôli ce serait Ziyâd زياد qui le premier aurait fait plusieurs copies de ses lettres[1].

On ne connaissait pas encore le métier d'expert الخبير en écritures. Solaïman ibn-Wahb سليمان بن وهب serait le premier à avoir fait quelque chose d'approchant. Ayant examiné une certaine lettre il suppose qu'elle avait été écrite par un faussaire ; il dicta donc à la personne qu'on soupçonnait le même texte ; le scribe jura ne l'avoir jamais écrit auparavant. Bien entendu, en prenant la dictée, il avait eu soin de modifier sa manière d'écrire. Mais Solaïman Ibn-Wahb n'en reconnut pas moins qu'il était bien l'auteur de la première lettre examinée ; et comme on lui demandait comment il avait acquis cette certitude, il répondit que le faussaire, malgré sa volonté de masquer son écriture, n'avait pû s'empêcher de former certaines lettres comme il en avait l'habitude naturellement, et que cela avait suffi pour le trahir[2].

Toutes les règles de l'art de bien écrire que nous venons d'analyser appartiennent, cela va sans dire, au seul style des lettres officielles, ou plutôt des lettres d'affaires. Quant aux missives privées, les Ikhwaniyat الإخوانيات comme on les appelle, il n'existe pas de règles pour elles. On parle avec un ami en toute liberté[3].

Mais c'est assez prolonger cette comparaison entre les œuvres d'Ibn-Durustuyah et d'Al-Sôli et la Lettre Vierge d'Ibn El-Mudabber. Pour nous résumer, nous dirons que le livre du premier traite la question à un point de vue grammatical et philologique ; le second l'examine sous l'angle des connaissances générales nécessaires à l'écrivain ; la Lettre d'Ibn-Mudabber, enfin, étudie les subtilités d'ordre artistique ou social qui ont trait à la correspondance officielle.

(1) Ibid, p. 44.
(2) Adab El-Kuttâb, p. 44.
(3) Ibid, p. 236.

l'a discutée aussi et noté que c'est كعب بن لؤى qui l'a forgée(1) ! Il s'agit, en tous cas, d'une mode très ancienne et qui s'est prolongée jusqu'à nos jours; elle commence cependant à tomber en désuétude.

Ibn El-Mudabber, nous l'avons vu, a rappelé quelques principes au sujet de la date à inscrire sur les lettres.

Ibn Durustuyah a été plus explicite sur la question(2) Al-Sôli l'a également traitée d'une manière détaillée(3). D'après les renseignements fournis par eux, les Arabes n'indiquaient pas la date au moyen des chiffres, en ce temps-là, mais par une notation assez compliquée.

Al-Sôli nous indique aussi que les *lakab* الألقاب n'ont été ajoutés aux noms que plus tard ; on sait que les *lakab* sont des qualificatifs que les califes joignaient à leur titre. Dans les discours prononcés en public : on priait pour le calife règnant, mais sans ajouter son *lakab* ; c'est pour Mohamad El-Amin محمد الأمين le premier qu'on a joint au nom le *lakab*. Après lui, la tradition s'est établie(4).

On a souvent insisté avec raison sur l'importance alors du métier de rédacteur ; le kateb الكاتب, dit-on, possédait tout en réalité, puisque c'était lui qui calculait et répartissait les impôts, le Kharag الخراج . Les rhéteurs n'ont pas à s'occuper de ce point là, préoccupés qu'ils sont de formuler les règles pour l'art d'écrire ; cependant Al-Sôli nous a laissé un excellent chapitre sur les avantages de ce métier, et il a évoqué avec des éloges le souvenir de ces Koraïchites قريش, cités dans la Bible comme des écrivains et des calculateurs de premier ordre(5). Dans un autre chapitre, il a résumé les connaissances qu'on avait alors sur le calcul, et cité à ce sujet quelques anecdotes(6).

(1) Adab El-Kuttâb, p. 36.
(2) Kitâb El-Kuttâb, pp. 77-81.
(3) Adab El-Kuttâb, pp. 178-185.
(4) Adab El-Kuttâb, p. 41.
(5) Ibid, p. 28.
(6) Ibid, p. 238.

Mais ceux qu'on appelle زنادقة chez les anciens Arabes, étaient, il faut le dire, des lettrés dont la culture était admirable ; peut-être avaient-ils le droit et même le devoir d'enrichir leur langue ? Qu'on laisse donc se développer, et librement évoluer un langage en notant simplement, si l'on y tient, quels sont les auteurs responsables de telle expression heureuse !

Les considérations d'Ibn El-Mudabber et d'Al-Sôli sur ce sujet ne peuvent nous apparaître que comme les premières étapes de la critique philologique. Nous n'avons pas besoin d'ajouter qu'aujourd'hui ces arguties scholastiques sont loin, et que les écrivains arabes de nos jours jouissent, à l'égard de leur langue, d'une pleine et entière liberté.

X

Al-Sôli a traité la question du cachet : الختم

Les Arabes antéislamiques ne le connaissaient pas, nous dit-il. C'est le Prophète qui l'a introduit chez eux, du jour où il eût appris que les rois n'acceptent pas une lettre qui ne porte pas de cachet[1]. Dans les premiers siècles de l'Islam, les ministres seuls pouvaient cacheter leurs lettres: leurs secrétaires n'avaient pas ce droit; lorsque l'un d'eux était amené par hasard à se servir du cachet, il devait par modestie signer sur le côté gauche de la lettre. De même au début il n'y avait pas de bureau particulier pour le sceau. C'est à Mo'awia معاوية qu'en est dûe la création[2].

Avant lui, les rois conservaient leur cachet dans un coffre, et autorisaient au besoin leurs ministres à s'en servir.

Ibn Durustuyah a parlé de l'expression "أما بعد", mais pour en donner seulement des commentaires grammaticaux[3]. Al-Sôli

(1) Adab El-Kuttâb, p. 139.
(2) Ibid, p. 141.
(3) Kitâb El-Kuttâb, pp. 76-77.

manéchéens "الزنادقة"; il nous donne des renseignements très précieux à ce sujet, car il va chercher des arguments jusque chez les premiers califes et le Prophète lui-même.

Mais, le raisonnement m'apparait un peu faible; évidemment les hommes de ce temps-là ne pouvaient rien considérer que sous l'angle de la religion. Dès l'instant qu'une expression avait été inventée par le Prophète ou l'un de ses proches, elle devenait intangible, sacrée. C'était de quoi paralyser notre langue et la priver de toute faculté d'évoluer.

Que l'on conserve les termes rituels de prières purement religieuses, rien de plus naturel; mais j'admets moins facilement qu'on doive s'en tenir obligatoirement aux termes qui ont pû avoir échappé au Prophète dans des entretiens familiers; il m'apparait fort improbable, en effet, que le Prophète ait songé à donner à chacune de ses conversations quotidiennes le caractère sacré d'un enseignement religieux. Il est d'ailleurs à remarquer que toutes les langues développées présentent des subtilités analogues dans l'emploi de telle ou telle expression; mais ces traditions s'appuient sur le génie lui-même de la langue, logiquement, et non pas sur des traditions religieuses interprétées par des esprits étroits.

En fait, les rhéteurs qui ont codifié ces subtilités n'avaient aucun pouvoir pour lutter, le cas échéant, contre l'usage établi. C'est ainsi qu'Ibn-El-Mudabber par exemple a critiqué et raillé l'expression: "جعلت فداك!"; cela ne l'a pas empêché de l'utiliser lui-même à différentes reprises dans ses vers[1] Al-Sôli blâme l'emploi de "أطال الله بقاك!" mais en même temps il avoue que tout le monde l'utilise[2].

Pourquoi ne l'eût-on pas employé agréablement après tout? Parce qu'on la devait à des athées?

---

(1) El-Aghani, p. 118-121, vol. 19.

(2) Adab El-Kuttâb, p. 172.

s'adresser même aux peuples étrangers ; il importe donc d'employer une orthographe "intégrale" qui facilite la lecture et la prononciation ; ce progrès hâterait grandement la diffusion de l'arabe dans le monde.

Les Arabes nomment "chakl شكل" ces signes-là, n'est-ce pas curieux ? Le mot signifiait originairement la corde avec laquelle on attache un animal un peu sauvage pour éviter qu'il ne s'enfuie ; on l'a pris dans un sens figuré pour indiquer le lien qui fixe chaque mot à sa signification authentique.

Les orientalistes auront avantage à utiliser le *chakl* régulièrement. Son emploi facilitera leur noble tâche.

IX

Ibn-Durustuyah a parlé de l'expression "سلام عليك" Selon lui, aurait existé de son temps une interprétation subtile de cette formule : sous la forme : "سلام عليك" elle était une salutation pour les vivants ; mais inversée sous la forme "عليك سلام" elle devenait un salut pour les morts. Les poètes seuls, prétend-il, confondent quelquefois les deux formes pour des besoins de mesure ou de rime, mais c'est le Prophète lui-même, à son dire, qui a engagé ses partisans à observer cette distinction (1).

Ibn El-Mudabber a parlé, nous l'avons vu, des prières par lesquelles on commençait les lettres. C'est une question fort délicate. A l'origine de la langue les formules d'invocation étaient très voisines l'une de l'autre ; cependant on faisait communément la différence entre "أطال الله بقاك!" et "أبقاك الله طويلا!" Al-Sôli nous apprend que la première devait être rejetée comme ayant été forgée par les

(1) cf. Kitâb El-Kuttâb, pp. 75 et 76. voir également الفواكه الدواني، شرح رسالة القيرواني — ص ٢٤١ ج ١

(2) Adab El-Kuttâb pp. 172-173.

mots qui changent de sens suivant la prononciation. Il importe enfin de dessiner complètement et correctement les mots que les gens du commun prononcent d'ordinaire mal.

Cette question de signes orthographiques me semble importante; elle est, comme on le sait une des critiques élevées contre les caractères arabes. On dit couramment que les mots écrits avec ces caractères peuvent se prononcer de plusieurs façons et présenter ainsi des sens différents; et c'est pour éviter cet inconvénient que les Turcs viennent d'adopter l'alphabet latin.

J'ignore quel succès a obtenu l'initiative des Turcs; mais ce que je sais bien, c'est que pour notre langue l'emploi de l'alphabet latin serait néfaste. Nous avons, en effet, deux sortes de voyelles; les grandes et les petites. Les grandes qui sont Alif ألف, waw واو, yâ ياء; les petites représentées par les signes qui fixent l'accent, c'est-à-dire damma ضمة, kasra كسرة, fatha فتحة.— Celles-ci, on ne pourrait les transcrire dans l'alphabet latin qu'avec la plus grande difficulté, et leur représentation compliquerait l'orthographe et la prononciation d'une manière considérable.

Pour éviter tant d'inconvénients, mieux vaut prendre l'habitude d'employer régulièrement les signes; ce n'est pas une très grande peine; et si on les inscrit, l'orthographe arabe reste plus facile et plus pratique que l'orthographe latine. Il est dommage que les anciens en aient délaissé l'obligation; ils avaient d'ailleurs une excuse, c'est qu'ils écrivaient pour des gens cultivés, et qu'un homme instruit n'éprouve jamais la moindre difficulté à lire des textes même entièrement dépourvus de signes d'accentuation; mais aujourd'hui la situation se présente très différente. La langue arabe veut

---

(1) Adab El-Kuttâb, pp. 57 - 58.

(2) Kitâb El-Kuttâb p. 57.

mots qui la composent la brisent elle ressemble au vers dont la mesure n'est pas juste ; les mots eux-mêmes prennent un aspect presque vulgaire et grossier[1] - Il est désagréable de voir un mot dont le dessin se trouve à cheval sur deux lignes[2].

Ibn Durustuyah a donné des renseignements sur les usages qui avaient cours de son temps pour l'adresse des lettres.[3] Il fallait inscrire les deux noms de l'expéditeur et du destinataire : si le second était un homme plus considérable, on devait l'écrire en premier. Al-Sôli indique que tout d'abord on avait pris l'habitude de mettre la Basmala en tête de l'adresse, mais qu'elle a été abandonnée[4]. Il se trouvait aussi des gens pour écrire leurs adresses en vers !.

Ibn El Mudabber a conseillé de ne pas écrire les signes et les points destinés à fixer la prononciation, sauf dans les cas où il peut y avoir amphibologie ; on doit alors employer l'orthographe régulière. Al-Sôli donne un conseil semblable. Il indique même qu'il faut toujours supprimer les points et les signes orthographiques quand on écrit à un chef ; car ce sont des gens qu'on doit tenir comme omniscients; le chef, lui, pourra, au contraire employer signes et points quand il écrit pour ses attachés ou ses secrétaires, afin de préciser sa responsabilité. Il y a d'ailleurs d'autres personnes encore, ajoute Al-Sôli, qui préfèrent inscrire tous les signes orthographiques, de crainte d'erreurs graves dans la lecture.[5]

Ibn-Durustuyah note que pour les philologues et les grammairiens c'est une obligation de mettre régulièrement les points et signes orthographiques, tandis que les écrivains de bureau peuvent les négliger, . . . à condition toujours, cependant, de les écrire pour les

(1) Ibid, p. 54.
(2) Ibid, p. 56.
(3) Kitâb El-Kuttâb, p. 97.
(4) Adab El-Kuttâb, p. 144.
(5) Ibid p. 146.

les anciennes habitudes; il s'agit là évidemment d'un pur formalisme, mais il a une valeur profonde de psychologie. On doit en être assuré puisque l'usage n'en est fait que pour les œuvres sérieuses. Pour les recueils de poésie, on juge inutile de les placer sous l'invocation de Dieu, car d'après les conservateurs religieux, la poésie est un simple amusement.

Pour en revenir au dicours de Ziyad, j'estime qu'Il avait eu bien raison de ne pas le couronner par cette invocation qui est une marque de grâce et de tendresse, puisqu'il s'agissait-là d'une diatribe virulente contre les habitants de Basra البصرة débauchés et fauteurs publics de désordre. Louer Dieu, prier pour le Prophète me semblent une attention délicate qu'il faut réserver pour les cas où l'on s'adresse à des esprits réfléchis et sensibles; l'habitude ne subsiste plus aujourd'hui, d'ailleurs, que dans les milieux religieux.

VIII

Al-Sôli a lui aussi parlé longuement de l'encre et de l'encrier,[1] ainsi que des qualités du papyrus,[2] de la fabrication du calame[3]; il a même traité ces questions moins superficiellement que ne l'a fait Ibn El-Mudabber, estimant comme lui qu'il n'est pas indifférent pour bien écrire d'avoir de bons instruments. Al-Sôli a même consacré un long chapitre à énumérer les lettres, les poèmes qui ont été composés à la gloire des bons calames. Jadis, les grands écrivains appréciaient le don d'un calame de bonne qualité à l'égal du plus précieux cadeau; et je crois bien qu'il doit en être aujourd'hui de même pour les stylos. Les anciens jugeaient un écrivain d'après ses outils et même, estimaient-ils qu'une mauvaise écriture était une maladie sans remède chez un homme dont c'est le métier d'écrire[4]. Une ligne devait être tracée avec régularité, car si les

---

(1) Adab El-Kuttâb, pp. 95-101.
(2) Ibid, p. 105.
(3) Ibid, pp. 69-70.
(4) Ibid, p. 52.

Nous allons maintenant examiner les points de contact qu'il est permis de trouver entre les idées contenues dans la Lettre Vierge et celles qu'ont exprimées les autres auteurs qui ont traité la même question.

A propos de l'invocation au Prophète الصلاة على النبي, Al Sôli en a parlé lui aussi; mais tandis qu'Ibn El-Mudabber indique seulement qu'elle était une tradition supprimée par les Banou-Omayya, Al-Sôli dit que l'habitude en fut instaurée par Haroun El-Rachid هرون الرشيد qui la recommanda, voulant par là faire une bonne action[1]. Le premier n'a rien dit de "Basmala البسملة" c'est-à-dire de l'invocation à Dieu au début des lettres; Al Sôli nous donne, au contraire des renseignements précieux à ce sujet,[2] ainsi que Ibn-Durustuyah[3]. On sait assez, par ailleurs, que dans les premiers siècles de l'Islam, les Arabes se sont montrés fort attachés à cette coutume de louer le nom de Dieû au début de leurs lettres, de leurs discours ou de leurs livres, et qu'on a blâmé par exemple Ziyad زياد lorsqu'il a prononcé, sans nommer Dieu ni le louer, le discours qui, à cause de cette omission, a été appelé: "Le Mutilé البتراء". On a même été jusqu'à forger un *hadith* qui condamne toute œuvre qui ne commencerait pas par cette invocation.

De nos jours, la première leçon qu'on donne à l'Université d'El-Azhar, après la rentrée, traite souvent de cette question: les auteurs azharistes commencent, en effet, toujours leurs livres par El-Basmala, même quand ils écrivent sur les mathématiques ou la géographie. C'est une tradition qui me semble dirigée surtout contre les mauvais croyants qui volontiers traitent avec indifférence

---

(1) Adab El-Kuttâb أدب الكتاب - p. 40.

(2) Adab El-Kuttâb - p. 31 et 32.

(3) Kitâb El-Kuttâb كتاب الكتاب p. 75.

être une feuille de dimensions, pour ainsi dire : rituelles. Nous n'ignorons pas d'ailleurs que ces traditions sont encore observées aujourd'hui. Enfin, il recommande de sècher l'encre avec de la poussière, avant de plier la lettre,... et de ne pas oublier de dater la lettre.

Ibn El-Mudabber conseille l'usage de l'invocation au Prophète; c'est la saine tradition, et comme on le sait, les écrivains n'y ont renoncé qu'à la suite des Banou-Omayya qui l'avaient supprimée les premiers.

On doit commencer une lettre en indiquant brièvement ce que l'on compte développer; les phrases de la fin doivent également préparer la conclusion.

Ibn El-Mudabber a donné des renseignements amusants à l'usage de ceux qui désirent décacheter une lettre sans l'abîmer afin d'en prendre connaissance, et de pouvoir la cacheter à nouveau sans qu'on puisse soupçonner qu'elle a été ouverte. Voilà qui nous en apprend assez long, sur l'importance des correspondances officielles dès ce temps là. Je crois bien, d'ailleurs, que de nos jours encore, le Cabinet Noir, fonctionne souvent; par quels procédés ? Il est inutile de le dire, mais qu'on soit bien persuadé que les diplomates et les guerriers connaissent leur affaire !.

Ibn El-Mudabber déclare enfin que le métier d'écrivain est un bon métier; il a tiré bien des hommes d'un milieu médiocre et grâce au Calame leur a parfois donné de la gloire.

VII

Je viens de faire une incursion rapide dans le texte de la Lettre-Vierge, mais il importe de lire attentivement l'original si l'on veut apprécier la valeur de ce petit chef-d'œuvre; c'est ce texte que je présente revu, corrigé et commenté.

Enfin, pour écrire de bonnes choses, il conviendra de choisir les moments où le cœur bat avec force, où l'âme est en pleine activité, car la nature ne livre le meilleur d'elle-même qu'aux heures ardentes où l'attire la violence du plaisir, ou la colère conquérante.

Un écrivain n'a pas le droit de prendre avec le langage régulier les libertés qu'à prises le Coran.

Parce qu'il s'est adressé à des Arabes de race pure, capables par conséquent de comprendre facilement n'importe quelles tournures de phrases, le Coran a parfois élidé des mots, supprimé des propositions entières; tandis qu'un écrivain qui s'adresse à des hommes souvent étrangers à la langue arabe doit éviter soigneusement les mots à sens amphibologique, et ceux qui ne sont pas assez précis.

VI

Ibn El-Mudabber attache beaucoup d'importance aux qualités matérielles du calame lui-même. Il donne à ce sujet, des renseignements qui semblent presque inutiles aujourd'hui qu'on achète tout préparé le matériel d'écriture. Cependant, je louerais volontiers mon auteur pour ces détails, comme d'une psychologie très subtile, lui et ceux qui avec lui ont traité cette question. Car un calame obéissant et souple entraîne l'esprit à merveille, et nous-mêmes aujourd'hui nous aimons à choisir telle plume plutôt qu'une autre, afin de rendre notre tâche plus agréable. On a même blâmé le célèbre poète contemporain Ahmad Chawky احمد شوقي pour avoir chanté les mérites de la plume Sadek ريشة صادق; on a crié à la réclame, et pourtant il est tout simple qu'un bon écrivain aime se servir d'une bonne plume.

La nature du papier retient aussi l'attention d'Ibn El-Mudabber; il le faut toujours d'excellente qualité, mais pour le format, chaque classe sociale a des traditions à cet égard. Une lettre officielle doit

C'est là, en effet, une vertu digne de louange, de façon générale, mais est-il décent de louer un roi pour la posséder, pour dire la vérité et ne pas mentir ? Dire la vérité et tenir ses promesses, c'est de la loyauté, sans doute, mais aussi un devoir et pour tous les hommes. On ne doit louer les rois que pour de belles actions qu'ils soient les seuls à pouvoir accomplir. Ira-t-on, par exemple, faire honneur à un souverain de ne pas courtiser la femme de son voisin, de ne pas trahir les secrets qu'on lui confie, de garder sa parole et de tenir ses promesses ? Ce sont là cependant des qualités qui méritent l'éloge, mais à l'égard d'un roi il serait ridicule, car ce sont aussi des devoirs que chacun doit remplir, même dans les classes les plus modestes de la société.

V

Ibn El-Mudabber conseille à celui qui voudrait choisir le métier d'écrivain de consulter d'abord sa nature.

Pour bien écrire, il faut des dispositions particulières et presque une vocation ; on forcerait en vain la nature, si elle est mal préparée, car il faut qu'un écrivain tire beaucoup de son propre fonds; celui qui compte sur la connaissance des œuvres d'autrui, ne mérite pas vraiment ce nom.

Que celui-là se méfie cependant, qui se sent des dispositions pour bien écrire ; car, en général, chacun de nous est porté à l'indulgence envers soi-même. Qu'il examine sévèrement ce qu'il compose ; la nature humaine est faible et vaniteuse et tout créateur contemple son œuvre avec les yeux attendris d'un père pour son fils, ou d'un amant pour l'aimée. Si l'on écrit une lettre, il faut la soumettre au jugement des hommes compétents, et sans en nommer l'auteur, bien entendu, la laisser discuter, éplucher ; et si elle trouve grâce, on pourra l'achever.

IV

L'écrivain doit fréquenter les savants et les lettrés, étudier avec soin les œuvres tant des anciens que des modernes, en connaître l'esprit, savoir par cœur poésies, nouvelles, histoire générale, afin d'enrichir sa poésie et de fournir au calame à la fois de la puissance et du charme. Il lui faut étudier les discours et les dialogues des Arabes, apprendre la logique, la littérature de la Perse, les traités des Persans et leurs proverbes, connaître aussi leurs manières d'agir et leurs ruses dans la guerre, et ne pas ignorer enfin, la grammaire, la philologie, et la versification.

Physiquement, un écrivain doit être de taille imposante, avoir des traits réguliers; sa voix doit résonner harmonieusement, et il faut que ses vêtements soient toujours propres et même élégants. Il importe que son âme soit douce, qu'il ait du bon sens et une expérience de la vie suffisante.

L'écrivain connaîtra parfaitement tous les milieux. Chaque classe sociale possède ses traditions, et rien ne serait plus ridicule de confondre des Califes... avec leurs ministres et de traiter de la même manière des secrétaires d'Etat et des généraux, par exemple.

Ibn-El-Mudabber ne cite pas les marchands ni les gens ordinaires comme correspondants dignes d'indication particulière, car, dit-il, ces gens là sont entièrement absorbés par les préoccupations de leur métier.

Mais pour les autres classes, comme toutes possèdent hiérarchie et tradition, il faut que l'écrivain en tienne soigneusement compte pour ne pas commettre d'erreur choquante. On a blâmé, par exemple, Al-Ahwas الأحوص pour avoir crû louer un roi par ces paroles: "Je vois que vous faites ce que vous dites, tandis que les autres ne tiennent pas leur parole et disent ce qu'ils ne font pas".

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم   مذق الحديث يقول ما لا يفعل

en fait, un certain nombre de celles qu'il a traitées, Al-Gahiz les avait déjà étudiées, mais cependant, d'une manière générale le titre se justifie; c'est bien là une "Lettre Vierge".

III

Ibn El-Mudabber donne la plus grande importance à la forme. Il observe que les mots doivent être choisis selon la situation du correspondant, selon son goût et son dégré de culture qui dépendent eux-mêmes des modes adoptées dans les différents milieux sociaux. Telles expressions, qui donnent pourtant un sens exact et précis, doivent être écartées, si elles ne sont pas celles qu'admet la mode particulière du milieu dans lequel vit l'interlocuteur. Tous les mots d'ailleurs doivent être choisis pour la clarté et la solidité avec lesquels ils expriment le sens-enfin, leur place dans la phrase importe également, afin qu'ils ne paraissent pas disparates à l'endroit qu'ils occupent. Car les mots sont semblables à la broderie qui orne une étoffe; chaque détail de la broderie doit être en harmonie avec l'ensemble du tissu; et les sages, dit-il, ont comparé le sens des écrits à la beauté des femmes, et les mots aux vêtements qui la parent.

Les mots eux-mêmes, d'ailleurs, un écrivain les trouve aisément: la difficulté réside dans leur arrangement: mettez les perles entre les mains de l'orfèvre, le difficile sera pour lui de composer le collier. La cornaline est jolie par elle-même, mais combien plus belle au cou d'une femme charmante! S'il veut produire quelque chose de beau, un auteur devra d'abord trouver un beau sujet. Il faut qu'un écrivain soit un homme juste et un sage; car la justice est l'âme des belles-lettres; et celui qui s'aviserait de traiter les choses légèrement n'obtiendrait aucun résultat; la sagesse demande des cœurs justes et équitables.

Les renseignements sur Ibn El-Mudabber se trouvent dispersées ça et là dans différents recueils.(1) Une part de sa célébrité lui vient de son amour pour 'Arib عريب la belle chanteuse. Il fut aussi l'intime ami d'Al-Gâhiz et tous deux passaient ensemble des veillées intéressantes. J'imagine que cette grande amitié fut une des causes qui ont incité Ibn El-Mudabber à composer son ouvrage sur l'art d'écrire, car je n'ai lu nulle part qu'il s'intéressât particulièrement à ce genre d'études. Cependant, j'ai trouvé chez Al-Sôli un mot qui semble bien indiquer chez Ibn El-Mudabber une certaine compétence pour la critique des expressions: la citation d'Al-Sôli est presque identique à celle qui se trouve dans la Lettre Vierge à propos des mots: "جعلت فداك".— Cela seul authentifierait la Lettre comme l'œuvre d'Ibn El-Mudabber. (1)

La rhétorique, dans ce morceau, n'est pas celle dont on a usé après lui. L'allure y est plus franche, plus directe que chez Al-Gahiz même: le souffle est plus chaud. L'auteur s'adresse aux écrivains des bureaux administratifs, à ceux par conséquent qui servent de secrétaires aux rois et aux Califes. Certains passages sont tout à fait originaux, et mettent bien en valeur les qualités et l'importance de la prose, ainsi que l'influence et l'autorité que le talent donne à l'écrivain.

La lettre dans son ensemble est une œuvre remarquable. L'auteur l'avait nommée "la Vierge" parce qu'il pensait y avoir examiné des questions que personne avant lui n'avait abordées;

(1) Sa biographie se trouve dans Al-Aghani الأغاني vol. 19, cf. aussi les pages 188 - 34 - 59 du vol. 18. — 35 et 36 du vol. 20. — 175; vol. 6 — 90 et 92. vol. 15 11 - 30; vol. 13; enfin 26 - 29 - 108 - 109 - 113 vol. 9 - On peut consulter aussi Yakout: p. 155 - 409 vol. 2 - 61 - 65 vol. 6. - 93 - 94 vol. 2 - Egalement Masalek El-Absar مسالك الأبصار p. 320 vol. I. Nishwâr p. 131 vol 1; enfin Zahr El-Adâb p. 113 - 140. vol. I.

(2) Adab El-Kuttâb ادب الكتاب vol. 154.

"Je venais, poussé par le désir de vous voir; mais dans les gens de votre suite, je n'ai trouvé que visages de bois".

"On dirait que je suis un créancier importun qu'on chasse ou un espion". (1)

Une autre fois, c'est Abou El-'Aynâ أبو العيناء qui vient chez 'Obaïd Allah Ibn Solaïman عبيد الله بن سليمان pour lui exposer une plainte. "Comment? répond 'Obaïd Allah, mais nous avons écrit à Ibn El-Mudabber afin qu'il arrange votre affaire".

"C'est vrai, Seigneur, vous avez écrit; mais à un homme qui est prisonnier de la dure pauvreté, jusqu'à l'humilité de la captivité. C'est pourquoi, il m'a déçu".

"Mais n'était-ce pas vous qui l'aviez choisi pour patron? répartit 'Obaïd Allah".

"Que peut-on me reprocher! dit Abou El-'Aynâ. Mais je ne suis pas le premier qui se soit trompé. Moïse avait à choisir soixante-dix sots.(2) Le Prophète prit Ibn Abi Sarh ابن أبي سرح pour son secrétaire; il apostasia par la suite. 'Ali Ibn Abi-Taleb علي بن أبي طالب a choisi Abou-Mousa أبو موسى comme arbitre; et il arbitra contre lui". (3)

La captivité dont parle ici Abou El-'Aynâ à propos d'Ibn El-Mudabber était réelle: Les Zangs l'avaient fait prisonnier à Basra et enfermé. Il s'échappa d'ailleurs et s'enfuit après avoir percé une muraille; son évasion a fourni à Al-Buhtori le sujet d'un beau poème. (4)

---

(1) Yakout ياقوت - p. 292, vol. I.

(2) Allusion à un verset du Coran (سورة الأعراف 154) Moïse eut à choisir 70 hommes: ils étaient tous sots.

(3) Zahr El-Adâb زهر الآداب - p. 256, vol. I. - Ibn Abi Sarh fut d'abord le secrétaire du Prophète: il l'abandonna ensuite, et trahit l'Islam pour se rejoindre à ses ennemis.

(4) Zahr El-Adâb - p. 257, vol. I.

puis, j'ai repris ma lecture mot à mot avec Mr. le Professeur Marçais qui m'a aidé à dissiper quelques obscurités. Je ne crois pas trop me flatter en pensant que ces efforts me permettent de présenter un texe amelioré à l'École des Langues Orientales de Paris. Il m'eût agréé fort d'écrire la présente introduction dans ma langue maternelle, mais Mr. Marçais m'en a dissuadé, estimant avec raison sans doute qu'il fallait songer aux lecteurs qui ne suivent pas aisément un texte arabe dans l'original, et l'écrire en français.

J'expose ici les idées principales de la Lettre et je les compare à celles qu'à la même époque Al-Gahiz الجاحظ, Al-Soli الصولى, Ibn-Durustuyah ابن درستويه et Ibn 'Abd Rabbih ابن عبد ربه ont exprimées sur le même sujet. (1)

L'intérêt de cette étude est de préciser la nature du mouvement littéraire et des théories touchant l'art d'écrire, au IIIe Siècle de l'hégire; c'est en quelque sorte un prologue pour mon ouvrage sur la prose arabe au IVe Siècle.

II

Ibrahim Ibn El-Mudabber ابراهيم بن المدبر, l'auteur de la Lettre Vierge الرسالة العذراء, à la fois écrivain et poète est mort à Bagdad en 279. Il appartient par conséquent au IIIe siècle de l'Hégire. Après avoir occupé différents postes éminents, il devint le ministre d'Al-Mo'tamed المعتمد. En cette qualité, on le voit fort entouré par les autres poètes et littérateurs qui en attendaient quelque faveur, et l'on trouve à ce sujet pas mal d'anecdotes savoureuses dans les recueils littéraires. Un jour par exemple, Al-'Atawi العطوى le poète, s'étant rendu chez lui pour le voir, se heurta au refus du portier; il se retira mais adressa aussitôt à Ibn El-Mudabber les deux vers suivants :

---

(1) Il semblerait que le nom d'Ibn Kotaïba ابن قتيبة dût être cité ici au premier rang, puisque son ouvrage Adab El-Kâteb أدب الكاتب est consacré à l'art d'écrire. En réalité, il s'agit plutôt là de philologie et non de rhétorique. Nous avons pourtant rapproché son texte de nos observations, dans l'édition même de la Lettre Vierge, toutes les fois qu'il a été possible de le trouver utile à notre objet.

Considération sur l'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

La lettre que je présente aujourd'hui à l'École des Langues Orientales de Paris a déjà été publiée en 1912-et pour la première fois, au Caire, dans un intéressant recueil qui paraissait alors sous les auspices et la direction de S. E. Mohammad Kordi 'Ali محمد كردى على, ministre de l'Instruction Publique en Syrie. Ce premier éditeur disait l'avoir trouvée dans un ancien manuscrit faisant partie de la bibliothèque du Cheikh Taher El-Gazaïri طاهر الجزائرى, et la publier sur le texte de ce seul document, faute d'en avoir trouvé d'autre.

Cette lettre est d'une haute importance. Personne, cependant, à ma connaissance ne s'y est intéressé après sa publication; pas même l'érudit qui la publiait, puisqu'il n'a joint à son texte aucun commentaire. Quant aux historiens de la littérature arabe, en Egypte, ils ont laissé passer l'évènement sans le relever; nul d'entre eux n'a songé à utiliser le document pour une étude sur l'art d'écrire.

J'ai demandé moi-même à M. Kordi 'Ali, dans une lettre, si depuis la publication de ce texte il en avait rencontré un autre manuscrit ou trouvé quelque renseignement; s'il avait enfin relevé lui-même quelques fautes de copiste ou des altérations. Dans sa réponse il m'indiquait n'avoir découvert aucun autre manuscrit de la Lettre-sans doute parce que les gens du pays ont le sens du mercantilisme plus encore que les frères de Joseph أبيع من اخوة يوسف; qu'il existait sans doute des fautes et des altérations dans le texte qu'il avait publié, comme il en va toujours des anciens manuscrits, quand ils n'ont pas eu la chance d'être écrits par des mains savantes ou encore corrigés par des lettrés, égaux en savoir à l'auteur lui-même.

J'ai donc poursuivi mon étude personnelle, attentivement, ce qui m'a permis de relever un certain nombre de leçons fautives;

A

Monsieur le docteur Snouck Hurgronje

Hommage de respectueuse gratitude.

Zaki Mubârak

Etude critique
sur

LA LETTRE VIERGE

D'IBN EL-MUDABBER

Par

ZAKI MUBARAK

Docteur ès Lettres de l'Université de Paris
Docteur ès Lettres de l'Université Egyptienne
Diplomé de l'Université d'El Azhar
Diplomé d'Etudes Supérieures de l'Ecole des Langues Orientales de Paris
Directeur de l'enseignement de l'arabe à l'Université Américaine du Caire
Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

DEUXIÈME ÉDITION

LE CAIRE,
IMP. DE LA BIBLIOTHÈQUE EGYPTIENNE

1931

DU MÊME AUTEUR

LA PROSE ARABE

au IV[e] siècle de l'Hégire (X[e] siècle)

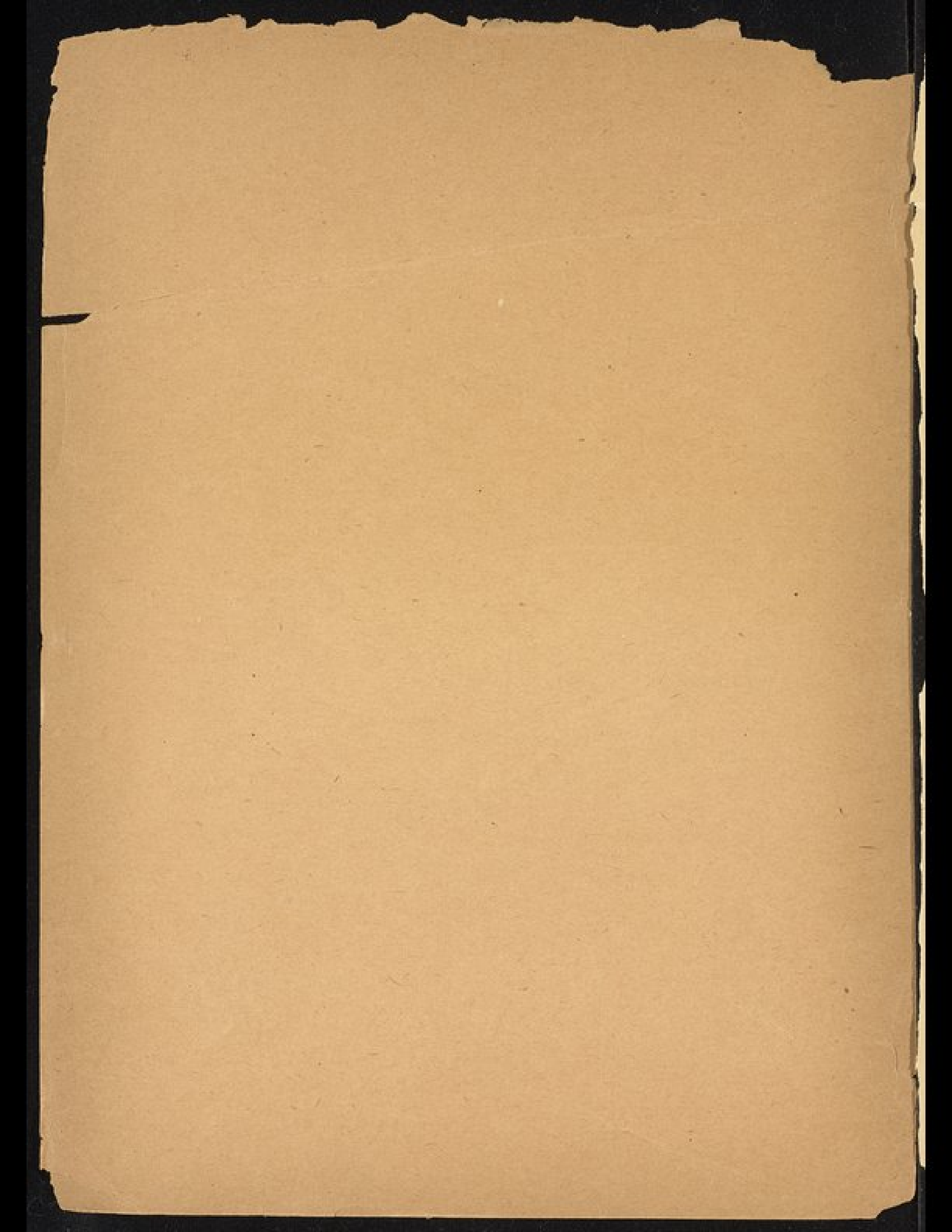
Arthur Jeffery
Cairo. 1932.

Etude critique

sur

LA LETTRE VIERGE

D'IBN EL-MUDABBER





Etude critique

sur

LA LETTRE VIERGE

D'IBN EL-MUDABBER

(† 279)

Par

ZAKI MUBARAK

Docteur ès Lettres de l'Université de Paris
Docteur ès Lettres de l'Université Egyptienne
Diplomé de l'Université d'El Azhar
Diplomé d'Etudes Supérieures de l'Ecole des Langues Orientales de Paris
Directeur de l'enseignement de l'arabe à l'Université Américaine du Caire
Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

DEUXIÈME ÉDITION

LE CAIRE,
IMP. DE LA BIBLIOTHÈQUE EGYPTIENNE

1931

